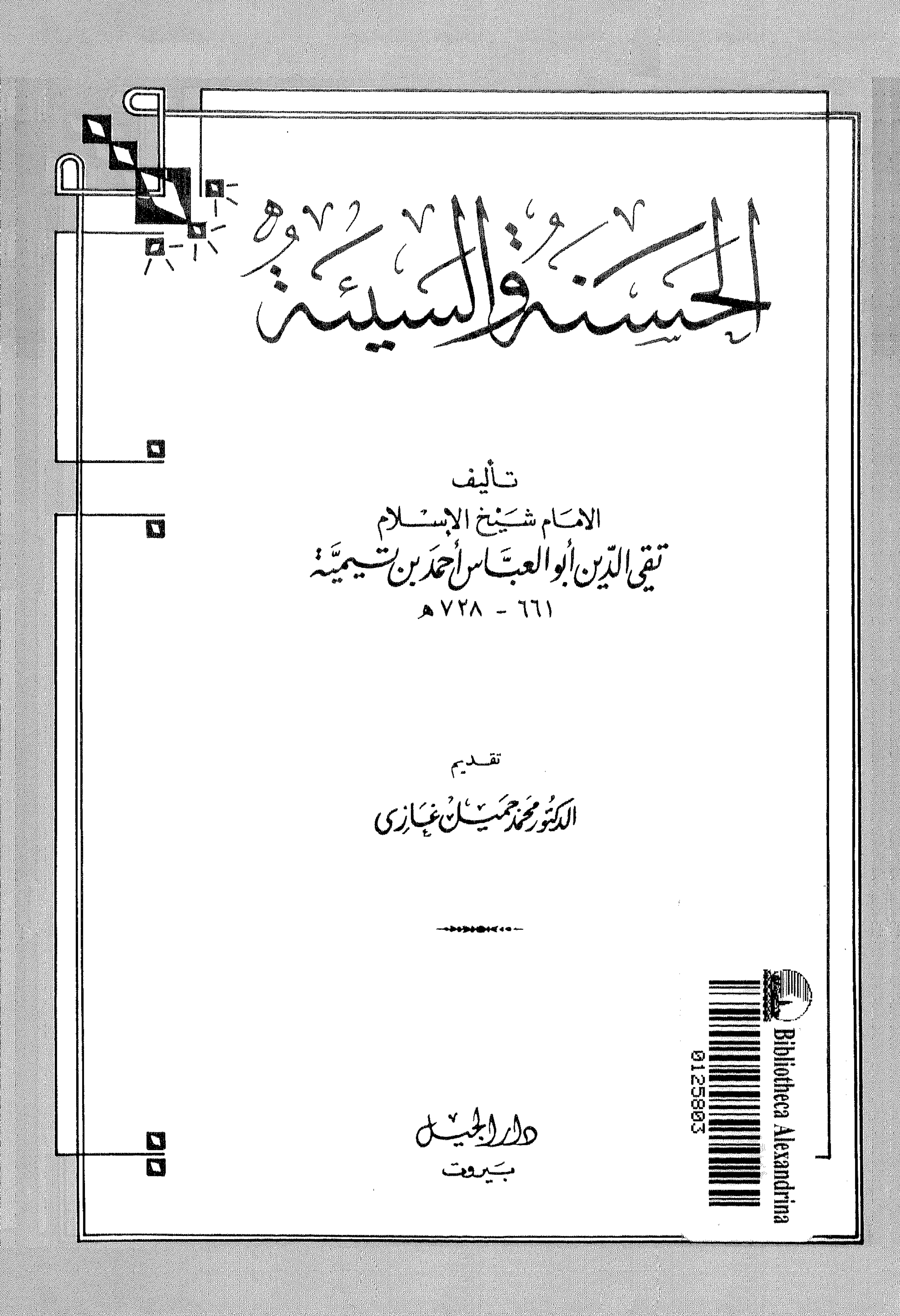


الحسنة والسيئة

تأليف

الامام شيخ الإسلام

تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية

٦٦١ - ٧٢٨ هـ

تقديم

الدكتور محمد جميل غازي

دار الجيل
بيروت



الحسنة والسيئة

تأليف

الامام شيخ الإسلام
تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية
٦٦١ - ٧٢٨ هـ

تقديم

الدكتور محمد جميل غازي

دار الجيل
بيروت

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

[سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام
على المرسلين ، والحمد لله رب العالميــــن]

(شيخ الإســـــلام .. الإمام)

« أنا رجل مِلَّة ، لا رجل دولة »
(ابن تيمية)

— ١ —

بين يدىَّ ، وأنا أكتب هذه المقدمة ؛ مجموعة من المراجع التى كتبت عن ابن تيمية ، وعرَّفت به .. !

وبين يدىَّ – أيضاً – حشد هائل من « البطاقات » التى تحمل نصوصاً وآراء ، وأرقاماً ، ووقائع ، وتعليقات .. تعين فى الكتابة عن الرجل ، والترجمة له ترجمة واضحة مستوعبة !

وقد أردت من خلال كل أولئك أن أكتب عن هذا الرجل الإمام ، معرِّفاً به ، وبجهاده وجهوده ، وبعلمه وفضله ، وبشخصيته ومناقبه ... !

* * *

ولكننى عدت ، فنحَّيت المراجع والبطاقات جانبا !

وقررت أن أكتب عن « شيخ الإسلام .. الإمام » بدون مراجع ، ولا بطاقات !!

من الذاكرة لا من المذكرات !

ذلك لأن علاقتى « بشيخ الإسلام .. الإمام » ترجع إلى عشرين عاماً مضت !!

قرأته ..

وقرأت عنه ..

واستوعبت – أو كدت – ، منهجه فى التجديد ، وخطته فى الإحياء ، وطريقته فى الفهم !!

ولعلّى بهذا ...

أستطيع أن أكتب عن « شيخ الإسلام ، الإمام » مقدّماً لكتابه : « الحسنة والسيئة » ..

ولعلّى بهذا – لا أخرج عمّا تواضع عليه الباحثون ، وقعّدوه من أساليب البحث ، ومناهج الدراسة !

– ٢ –

وأبادر فأقول لحماة المنهج العلمى ، ودعاته ..

إن « ابن تيمية » قد سبقهم إلى تقرير قواعد المنهج العلمى فى جميع ماكتب ، ودرس ، وبحث ، وحقّق ..

بل إنه أول من ناقش « منطق أرسطو »[(١)] وردّ أشكاله وحدوده .. ووضع أسس المنهج الاستقرائى .. أو .. منطق العلوم !

ولكنه لم يجد من قومه من يهتم به كما وجد « بيكون » من قومه حتى نسب المنطق الاستقرائى إلى « بيكون » .. وكان حقه أن ينسب إلى « ابن تيمية » وضعاً للأمور فى نصابها !!

– ٣ –

إن « ابن تيميّة » بمؤلفاته التى أربت على الخمسمائة ، أدّى خدمات جليلة إلى المكتبة العربية الإسلامية .. ولكنه على الرغم من هذه الجهود التى ينوء بالاضطلاع بها « العصبة أولو القوّة » من الدارسين والمؤلفين ؛ لم يجد من يتوفّر على دراسة مؤلفاته دراسة جادة ، وفهرستها فهرسة دقيقة ، وإشاعتها فى الخافقين ..

و « ابن تيميّة » ..

أو .. شيخ الإسلام ، الإمام .

---

(١) راجع كتابيه : « نقض المنطق » و « الرد على المنطقيين » .

عالمٌ ، وَعَى مصادر الثقافة الإسلامية ، واستوعب ماكتبه وألَّفه أئمة الدين وشيوخه ..

هو عالمٌ لايكتفى بحفظ الدين وروايته ، فهذا دور يتحوّل به « العالِمْ » إلى « كتاب » ... يوضع على رفٍّ فى صوان !

ولكنه كان يناقش مايقرأ ، ومايسمع بوعيٍ وفهمٍ ورغبة أكيدة فى الوصول إلى الحق .. وقد وصل !

فما كان مقلداً لآراء الآخرين ، ولا جامدًا على أفكار سابقيه لأنها عرضة للحق وللباطل ، وللصواب وللخطإ ، للأخذ منها وللردّ عليها !

ولم يكن الرجل يسير على (الهوى) فى مناقشة آراء الآخرين وأفكارهم ، وإنما كان يلوذ ويعتصم (بالهدى) من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ولهذا .. وجد نفسه مضطراً إلى مخالفة كثير من الأفكار السائدة ..

ووجد نفسه مضطراً إلى دخول معركة حامية الوطيس مع عباد القديم ، وسدنته ، أولئك الذين يعبدون القديم ويدينون به ؛ لأنه قديم ، لا لأنه حق !

آذوه بكل أسلوب ..

واستعملوا فى حربه كل سلاح ؛ حتى أسلحة الدس ، والخداع ، والتآمر !

ولكن الرجل كان كبيراً ، فما أبهَ ، ولا استسلم ، ولا تراجع ؛ بل ظلّ صامداً صابراً ؛ يدافع عن الحق الذى يؤمن به ويفتديه ..

وقدموه للمحاكمة .. أكثر من مرة ..

وناقشوا آراءه التى زعموا – أنها اختلاف وافتراء – والتى أفهمهم بكل جلاء ووضوح أنها الحق الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ..

ولكنهم كشأن كل مجادل مبطل ، متكبر جبار :

﴿ بَدَا لَهُم مِنْ بَعْدِ مارَأَوُا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ [يوسف : ٣٥] .

* * *

دخل « شيخ الإسلام ، الإمام » السجن عدة مرّات ، فى مصر ، وفى دمشق ..

ولم يكن السجن ليروعه أو يخيفه ؛ بل كان شيئاً محبّباً إلى نفسه ، فهو الذى يقول :

[مايصنع أعدائى بى ؟

أنا جنتى وبستانى فى صدرى ..

أين رحت فهى معى لاتفارقنى ..

فحبسى خلوة ..

وقتلى شهادة ..

وإخراجى من بلدى سياحة]

وهو الذى يقول :

[المحبوس من حبس قلبه عن ربه ،

والمأسور من أسره هواه]

وهو الذى يقول :

[فتح الله علىَّ فى هذا الحصن من معانى القرآن ، ومن أصول العلم بأشياء مات كثير من العلماء يتمنونها ، وندمت على تضييع أكثر أوقاتى فى غير معانى القرآن] .

وهو الذى يقول لما أدخلوه القلعة سجيناً ، وأغلقوا عليه بابها : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ ﴾ [الحديد : ١٣] .

– ٤ –

ولم يكن ابن تيمية – وحده – هو العالم المسلم الذى أدّى ضريبة العلم ، فإن كثيراً من علمائنا مرُّوا بنفس التجربة ، وفتنوا فى أموالهم وأنفسهم ..

فهذا هو عبد الرحمن بن أبى ليلى ، وسعيد بن جبير يقتلهما الحجاج !

وهذا هو سعيد بن المسيَّب يضربه عبد الملك بن مروان مائة سوط ، ويصبّ عليه جرّة ماءٍ فى يوم شاتٍ !

وخبيب بن عبد الله بن الزبير – يضربه عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد مائة سوط ؛ لأنه حدّث عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا بلغ بنو أبى العاص ثلاثين رجلا اتخذوا عباد الله خَوَلًا ، ومال الله دولًا ! » .

فكان عمر إذا قيل له : أبشر ، يقول : كيف بخبيب على الطريق !

وأبو عمرو بن العلاء يضربه بنو أمية خمسمائة سوط !

والإمام موسى الكاظم سجنه هارون الرشيد حتى مات !

والإمام أبو حنيفة توفى فى السجن بعد أن ضرب ، وقيل : سُقِىَ سُمًّا !

والإمام مالك ضربه جعفر بن سليمان والى المدينة من قِبَل المنصور سبعين سوطاً !

والإمام أحمد ، امتحن وسجن وضرب فى أيام بنى العباس .

* * *

وهكذا .. هكذا ..

يحمل التاريخ الإسلامى فى أعز صفحاته « قوائم شرف » بأسماء علماء أجلاء أدوا الرسالة فى بسالة ، ووفَّوا بميثاق الله الذى واثقهم به لما أُوتوا الكتاب : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران : ١٨٧]

— ٥ —

لكن : من هو العالم ؟

ونرجع إلى « شيخ الإسلام ، الإمام » نسأله ونستفتيه فنجد الإجابة واضحة فى كتابه « الحسنة والسيئة » هذا هو الذى نقدمه للقراء اليوم ...

قال — رحمه الله وأثابه — وهو بصدد تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيماً ﴾ [النساء : ١٧] .

السيئات — كلها — ترجع إلى الجهل ، وإلا فلو كان الإنسان عالماً علماً نافعاً بأن هذا يضرّه ضرراً راجحاً لم يفعله ، فإن هذا خاصية العاقل !

ثم ينقل عن أبى العالية قوله : « سألت أصحاب النبى ﷺ عن هذه الآية ، فقالوا : كل من عصى الله فهو جاهل ، ومن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب » .

وقال « شيخ الإسلام ، الإمام » — رحمه الله وأثابه — وهو بصدد تفسيره لقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] كل من خشيَهُ وأطاعه وترك معصيته فهو عالم ، كما قال الله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وقائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] .

وينقل عن الشعبى أن رجلا قال له : أيها العالم ، فقال : إنما العالم من يخشى الله ! » .

وينقل عن ابن مسعود قوله : « كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاعترار جهلا » .

* * *

فالعالم – عند ابن تيميَّة – هو من يخشى الله ، ويوقِّره ، ويتبع أوامره ، ويجتنب نواهيه ، ويقف عند حدوده ، ويصدع بما يؤمر .. !

والجاهل – عند ابن تيمية – هو من يفعل السيئات ، ويأتى الموبقات ، ويتكاسل عن أداء الواجبات !!

ألا ليت علماءنا يفهمونْ دورهم ورسالتهم هذا الفهم السليم المستقيم ..

ألا ليتهم يدركون أن العلم ليس كتباً تحفظ لتتلى ، ولا « دبلومات » تُزيِّن بها صدور الحوائط ، وإنَّما العلم خلق ، ورسالة ، وأمانة ، وخشية لله !

ألا ليتهم يفهمون ..

ألا ليتهم يدركون ..

إذاً لتغيَّر وجه الدنيا ، وانصلح أمر الناس .

* * *

ومادمت قد وصلت إلى هذه النقطة من هذه المقدمة ، فإننى أكون قد وصلت إلى التعريف بالكاتب .. والكتاب فى آن واحد .

فالكتاب هو : « كتاب الحسنة والسيئة » أى : « كتاب العلم والجهل » .

والكاتب – عالم يفهم رسالته ، ويعرف أبعاد هذه الرسالة وأعباءها ..

فهو ليس رجل محافل ، تزدهيه عبارات الإعجاب والإطراء ، ويستهويه أن يتجمع حوله أتباع وأشياع ..

إنما هو رجل حق .. يزول معه حيثما زال ، ويميل أينما مال ..

هو رجل يسير فى الطريق المستقيم ، ولا توحشه قلة السالكين .

وينأى عن الطريق المنحرف ، ولا يغترّ بكثرة الهالكين ..

هو كما يقول عن نفسه : « رجل ملّة ، لا رجل دولة » ..

— ٦ —

إن « ابن تيميّة » كان موسوعة ثقافية هائلة ، وحركة نضالية دائبة ، وتاريخاً إسلامياً حافلا ..

يقول عنه معاصروه :

[كانت له خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم ومعرفة بفنون الحديث مع حفظه لمتونه الذى انفرد به ، وهو عجيب فى استحضاره واستخراج الحجج منه ، وإليه المنتهى فى عزوه إلى الكتب الستة والمسند ؛ بحيث يصدق عليه أن يقال : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث ، ولكن الإحاطة لله تعالى ، غير أنه يغترف من بحر ، وغيره من الأئمة يغترفون من السواق ، وأما التفسير فسلم إليه وكان يكتب فى اليوم والليلة من التفسير أو من الفقه أو من الأصلين أو من الرد على الفلاسفة نحواً من أربعة كراريس] [1] .

ويقول عماد الدين الواسطى :

[فوالله ، ثم والله ، لم ير تحت أديم السماء : مثل شيخكم ابن تيمية علماً وعملا وحالاً وخلقاً واتباعاً وكرماً وحلماً وقياماً فى حق الله تعالى عند انتهاك حرماته] .

ويقول الزملكانى :

[كان الفقهاء فى سائر الطوائف إذا جالسوه استفادوا فى مذاهبهم منه أشياء ، ولايعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه ، ولا تكلم فى علم من العلوم سواء أكان من علم الشرع أو غيره إلا فاق فيه أهله ، واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها] .

ويقول الحافظ الذهبى :

---

(١) ابن الوردى .

[لو حلفت بين الركن والمقام ، أنى مارأيت بعينى مثله ، وأنه مارأى مثل نفسه لما حنثت] .

ويقول عنه ابن دقيق العيد لما لقيه :

[رأيت رجلا جميع العلوم بين عينيه يأخذ منها مايريد ، ويدع مايريد] .

هذا هو ابن تيميَّة ..

شيخ الإسلام ، الإمام ..

وهذا ماأردت أن أقوله فى تقديمى لهذا الكتاب .. لكننى نسيت فى زحمة المشاعر والمآثر أن أذكر لك هذه الأرقام :

ولد شيخ الإسلام الإمام : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيميَّة فى ١٠ من ربيع الأول ٦٦١ هـ (١٣٦٣ م) بحرّان بالعراق .

وهاجر به أبوه فرارا من التتار سنة ٦٦٨ هـ .

وتوفى فى ٢٠ من شوال ٧٢٨ هـ (١٣٢٨ م) بدمشق .

* * *

يرحمه الله رحمة واسعة كفاء ماقدم لدينه من ولاء وفداء ، وجزاء ماقدم لأمته من جهود وتضحيات .

وصدق الله العظيم :

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَاعَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

القاهرة (الزيتون) فى الخميس : ١٤ من جمادى الآخرة ١٣٩١ هـ
٥ من أغسطس ١٩٧١ م

محمد جميل أحمد غازى

(تنبيه) : تيسيراً على القارىء قسمنا الكتاب إلى فقرات مرقمة ، ووضعنا لكل فقرة عنواناً .

الحسنة والسيئة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لاشريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

فصــل

فى قوله تعالى : ﴿ مَاأَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] . وبعض ماتضمنته من الْحِكَم العظيمة .

[سياق الآية]

١ – هذه الآية : ذكرها الله فى سياق الأمر بالجهاد ، وذم الناكثين عنه . قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً ﴾ [النساء : ٧١] . إلى أن ذكر صلاة الخوف . وقد ذكر قبلها طاعة الله وطاعة الرسول والتحاكم إلى الله والرسول ، ورد ماتنازع فيه الناس إلى الله وإلى الرسول ، وذم الذين يتحاكمون ويردون ماتنازعوا فيه إلى غير الله والرسول .

فكانت تلك الآيات : تبييناً للإيمان بالله وبالرسول ، ولهذا قال فيها : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَايُؤْمِنُونَ ، حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَايَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ، وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

وهذا جهاد عما جاء به الرسول ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ [الحجرات : ١٥] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ : إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ

وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا : أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللهُ لَايَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤] . وقال : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ . وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ ؟ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وِرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ ﴾ الآية [التوبة : ١٩ - ٢١] .

وقال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ . وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ . يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ ، فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف : ١٠ - ١٤] .

وذكر بعد آيات الجهاد [١] إنزال الكتاب على رسول الله ليحكم بين الناس بما أراه ، ونَهْيَه عن ضد ذلك . وذكْره فضل الله عليه ورحمته فى حفظه ، وعصمته من إضلال الناس له . وتعليمه مالم يكن يعلم . وذم من شاقّ الرسول ، واتبع غير سبيل المؤمنين . وتعظيم أمر الشرك ، وشديد خطره ، وأن الله لا يغفره ، ولكن يغفر مادونه لمن يشاء إلى أن بَيّنَ أن أحسن الأديان . دين من يعبد الله وحده ، لايشرك به شيئاً ، بشرط أن تكون عبادته بفعل الحسنات التى شرعها ، لا بالبدع والأهواء . وهم

(١) فى سورة النساء : ١٠٥ - ١٢٥ .

أهل ملة إبراهيم الذين اتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ﴿ وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٣٥] .

فكان فى الأمر بطاعة الرسول والجهاد عليها اتباع التوحيد ، وملة إبراهيم . وهو إخلاص الدين لله ، وأن يعبد الله بما أمر به على ألسُن رسله من الحسنات .

وقد ذكر تعالى فى ضمن آيات الجهاد : ذمّ من يخاف العدو ، ويطلب الحياة ، وبيَّن أن ترك الجهاد لا يدفع عنهم الموت ، بل أينما كانوا أدركهم الموت ، ولو كانوا فى بُروجٍ مُشيَّدةٍ . فلا ينالون بترْكِ الجهاد مَنْفعَةً ، بل لا ينالون إلا خسارة الدنيا والآخرة . فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ : كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً . وَقَالُوا : رَبَّنَا ، لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ؟ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ؟ قُلْ : مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى . وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء : ٧٧] .

وهذا الفريق قد قيل : إنهم منافقون : وقيل : نافقوا لما كُتب عليهم القتال : بل حصل منهم جُبن وفَشَل . فكان فى قلوبهم مرض . كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فأَوْلَى لَهُمْ : طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ – الآية ﴾ [محمد : ٢٠ ، ٢١] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : مَاوَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ [الأحزاب : ١٢] .

والمعنى متناول لهؤلاء ولهؤلاء : ولكل من كان بهذه الحال .

ثم قال : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ . وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ

قل : كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فمَا لِهَؤُلاءِ الْقَوْمِ لَايَكَادُون يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٧٨] .

فالضمير فى قوله : « وإن تصبهم » يعود إلى من ذُكِرَ ، وهم : « الذين يخشون الناس » أو يعود إلى معلوم ، وإن لم يذكر ، كما فى مواضع كثيرة .

وقد قيل : إن هؤلاء كانوا كفاراً من اليهود ، وقيل : كانوا منافقين . وقيل : بل كانوا من هؤلاء وهؤلاء . والمعنى يعمُّ كل من كان كذلك . ولكن تناوله لمن أظهر الإسلام وأُمر بالجهاد أولى .

ثم إذا تناول الذم ، فهو للكفار الذين لايظهرون الإسلام أولى وأحرى .

[المراد بالحسنة والسيئة عند عامة المفسرين]

٢ - والذى عليه عامة المفسرين : أن « الحسنة » و « السيئة » يراد بهما النعم والمصائب ، لىس المراد مجرد مايفعله الإنسان باختياره ، باعتباره من الحسنات أو السيئات .

فصل

[معنى الحسنات والسيئات فى كتاب الله]

٣- ولفظ « الحسنات » و « السيئات » فى كتاب الله يتناول هذا وهذا . قال الله تعالى عن المنافقين : ﴿ إن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ [آل عمران : ١٢٠] . وقال تعالى : ﴿ إنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ) [التوبة : ٥٠] . وقال تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٨] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ . فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى : ٤٨] .

وقال تعالى – فى حق الكفار المتطيّرين بموسى ومن معه : ﴿ فإذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا : لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾ [الأعراف : ١٣١] . ذكر هذا بعد قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بالسِّنِينَ ونَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٠] .

[المأمور به والمنهى عنه]

٤ – وأما الأعمال المأمور بها ، والمنهى عنها ، ففى مثل قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بالحسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [القصص : ٨٤] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الحسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [هود : ١١٤] . وقوله تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [الفرقان : ٧٠] .

[معنى التعبير « بما أصابك »]

٥ – وهنا قال ﴿ ماأَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] . ولم يقل : وما فعلت ، وما كسبت ، كما قال : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : ٣٠] . وقال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ : أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ [المائدة : ٤٩] . وقال تعالى : ﴿ قل : هل تَرَبَّصُونَ بنا إلا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ؟ ونحن نَتَرَبَّصُ بِكُم أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ [التوبة : ٥٢] . وقال تعالى ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ ﴾ [الرعد : ٣١] . وقال تعالى : ﴿ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ المَوْتِ ﴾ [المائدة : ١٠٦] ، وقال تعالى ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا : إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٥ ، ١٥٦] .

فلهذا كان قوله : « ماأصابك من حسنة » و « من سيئة » متناول لما يصيب الإنسان ، ويأتيه من النعم التى تسره ، ومن المصائب التى تسوءه .

[آراء المفسرين]

٦ – فالآية متناولة لهذا قطعاً . وكذلك قال عامة المفسرين .

قال أبو العالية : « إن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله » قال : هذه فى السراء « وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك » قال : وهذه فى الضراء .

وقال السدى : « إن تصبهم حسنة قالوا » والحسنة الخصب ، ينتج خيولهم وأنعامهم ومواشيهم ، ويحسن حالهم ، وتلد نساؤهم الغلمان « قالوا : هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة قالوا » – والسيئة : الضرر فى أموالهم ، تشاؤماً بمحمد – « قالوا : هذه من عندك » يقولون : بتركنا ديننا ، واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء فأنزل الله « قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ » الحسنة والسيئة « فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ؟ » قال : القرآن .

وقال الوالبى عن ابن عباس : « مَاأَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ » قال : مافتح الله عليك يوم بدر ، وكذلك قال الضحاك .

وقال الوالبى أيضاً عن ابن عباس : « من حسنة » قال : ماأصاب من الغنيمة ، والفتح فمن الله ، قال : « والسيئة » ماأصابه يوم أُحد ، إذ شُجَّ فى وجهه وكُسِرت رباعيته ، وقال : أما « الحسنة » فأنعم الله بها عليك ، وأما « السيئة » فابتلاك الله بها .

وروى أيضاً عن حجاج عن عطية عن ابن عباس : « ماأصابك من حسنة فمن الله » قال : هذا يوم بدر « وما أصابك من سيئة فمن نفسك » قال : هذا يوم أُحد . يقول : ماكان من نكبة : فمن ذنبك ، وأنا قدرت ذلك عليك .

وكذلك روى ابن عيينة عن إسماعيل بن أبى خالد عن أبى صالح : « فمن نفسك » قال : فبذنبك ، وأنا قدَّرتها عليك . روى هذه الآثار ابن أبى حاتم وغيره .

وروى أيضاً عن مُطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير . قال : ماتريدون من القدر ؟ أما تكفيكم هذه الآية التى فى سورة النساء : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا :

هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا : هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ ؟ أى من نفسك . والله ماوُكِلوا إلى القدر ، وقد أُمِرُوا به ، وإليه يصيرون .

وكذلك فى تفسير أبى صالح عن ابن عباس : « إن تصبهم حسنة » الخصب والمطر « وإن تصبهم سيئة » الجدب والبلاء .

وقال ابن قتيبة « ماأصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » قال : الحسنة : النعمة ، والسيئة : البلية .

وقد ذكر أبو الفرج فى قوله : « ماأصابك من حسنة – ومن سيئة » ثلاثة أقوال :

أحدها : أن « الحسنة » مافتح الله عليهم يوم بدر ، و « السيئة » ماأصابهم يوم أُحد . قال : رواه ابن أبى طلحة وهو الوالبى : – عن ابن عباس .

قال : والثانى : « الحسنة » : الطاعة . و « السيئة » : المعصية قاله أبو العالية .

والثالث : « الحسنة » : النعمة ، و « السيئة » : البلية . قاله ابن منبه . وعن أبى العالية نحوه ، وهو أصح .

[رأى ابن تيمية]

٧ – قلت : هذا القول المعروف بالإسناد عن أبى العالية ، كما تقدم من تفسيره المعروف الذى يروى عنه هو وغيره ، من طريق أبى جعفر الدارى عن الربيع بن أنس عنه وأمثاله .

وأما الثانى : فهو لم يذكر إسناده ، ولكن ينقل من كتب المفسرين الذين يذكرون أقوال السلف بلا إسناد ، وكثير منها ضعيف ، بل كذب ، لايثبت عمن نقل عنه : وعامة المفسرين المتأخرين أيضاً يفسرونه على مثل أقوال السلف ، وطائفة منهم تحملها على الطاعة والمعصية .

فأما الصنف الأول : فهى تتناوله قطعاً ، كما يدل عليه لفظها وسياقها ومعناها وأقوال السلف .

وأما المعنى الثانى : فليس مراداً دون الأول قطعا ، ولكن قد يقال : إنه مراد مع الأول ، فاعتبار أن مايهديه الله إليه من الطاعة : هو نعمة فى حقه من الله أصابته ، وما يقع منه من المعصية ؛ هو سيئة أصابته . ونفسه التى عملت السيئة .

وإذا كان الجزاء من نفسه . فالعمل الذى أوجب الجزاء أولى أن يكون من نفسه ؛ فلا منافاة أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه ، مع أن الجميع مقدّر كما تقدم . وقد روى عن مجاهد عن ابن عباس : أنه كان يقرأ « فمن نفسك ، وأنا قدَّرتها عليك » .

فصـــل

[تتابع المعاصى]

٨ – والمعصية الثانية ، قد تكون عقوبة الأولى ، فتكون من سيئات الجزاء ، مع أنها من سيئات العمل .

قال النبى ﷺ – فى الحديث المتفق على صحته – عن ابن مسعود رضى الله عنه ،عن النبى ﷺ : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، والبر يهدى إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ، ويتحرى الصدق ، حتى يكتب عند الله صدوقا ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، والفجور يهدى إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ، ويتحرَّى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذاباً » .

[تتابع الحسنات]

٩ – وقد ذكر فى غير موضع من القرآن مايبين أن الحسنة الثانية : قد تكون من ثواب الأولى . وكذلك السيئة الثانية : قد تكون من عقوبة الأولى . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَايُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً . وَإِذًا لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيمًا . وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيمًا ﴾ [النساء : ٦٦ – ٦٨] . وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] . وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ

قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهم سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ، وَيُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد : ٤ - ٦] . وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى ﴾ [الروم . ١٠] . وقال تعالى : ﴿ وكتابٌ مُبِينٌ . يهدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ [المائدة : ١٥ ، ١٦] . وقال تعالى : ﴿ ياأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُم نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الحديد : ٢٨] . وقال تعالى : ﴿ وفى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمةٌ للَّذِينَ هُم لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٤] . وقال تعالى : ﴿ هذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِم وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُم طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ . وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لَايُقْصِرُون ﴾ [الأعراف : ٢٠١ ، ٢٠٢] ، وقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِى المُحسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٢٢] . وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِى المحْسِنِينَ ﴾ [القصص : ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ – وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ – كَفَّرَ عَنْهُم سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا البَاطِلَ ، وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهمْ ﴾ [محمد : ١ - ٣] وقال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَاحُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَاحُمِّلْتُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ، وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا البَلَاغُ المُبِينُ ﴾ [النور : ٥٤]

١٠ - قال أبو عثمان النيسابورى : من أمَّرَ السنة على نفسه - قولًا وفعلًا - نطق بالحكمة ، ومن أمَّرَ الهوى على نفسه - قولًا وفعلا - نطق بالبدعة ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ .

قلت : وقد قال فى آخر السورة : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ، أو يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] ، وقال تعالى : ﴿ ومايُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذَا جَاءَتْ لَايُؤْمِنُونَ ، ونُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٩ ، ١١٠] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعَانِ إِنَّما اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَاكَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٥] وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى ؟ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِى القَوْمَ الفَاسِقِينَ - إلى قوله - وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلَامِ وَاللهُ لَايَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الصف : ٥ - ٧] وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا : قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّايُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : ٨٨] وقال تعالى أيضاً : ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللهُ لايَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرضُ بِمَا رَحُبَتْ ثم وَلَّيْتُمْ مُدْبِرينَ . ثمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى المؤْمِنِينَ وأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [التوبة : ٢٥ ، ٢٦] وقال تعالى فى النوعين : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى المَلَائِكَةِ : أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [الأنفال : ١٢ ، ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَالَم يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ، وَمأْوَاهُمُ النَّارُ ، وَبِئْسَ

مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥١] ، وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الحَشْرِ ، مَاظَنَنْتُم أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَم يَحْتَسِبُوا وقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى المُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِروا ياأُولِي الأَبْصَارِ . وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الجَلَاءَ لَعَذَّبهم فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ [الحشر : ٢ - ٤] ، وقال تعالى : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ، وَإِنْ يُقَاتِلُوكَمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لايُنْصَرُونَ . ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ من الله وضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [آل عمران : ١١١ ، ١١٢] ، وقال تعالى : ﴿ تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَاقَدَّمت لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيهِمْ وَفِى العَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ . وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَاأُنزِلَ إِلَيْهِ مَااتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٨٠ ، ٨١] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَتجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَايَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المائدة : ٨٢] ، وقال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ . أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ ! أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا . إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِنْ بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى : الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَانَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٢ - ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَاوَعَدُوهُ وبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة : ٧٥ - ٧٧] ، وقال تعالى : ﴿ فإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ : لَنْ تَخْرُجُوا مَعِىَ أبداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا ، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الخَالِفِينَ ﴾

[التوبة : ٨٣] ، وقال تعالى فى ضدِّ هذا : ﴿ وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُم هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِىَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيمًا – إلى قوله – وَلَوْ قَاتَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ، ثُمَّ لَايَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

[الفتح : ٢٠ – ٢٣] .

وتوليتهم الأدبار : ليس مما نهوا عنه ، ولكن هو من جزاء أعمالهم وهذا باب واسع .

فصـــل

[شروط الأنفس]

١١ – وإذا كانت السيئات التى يعملها الإنسان قد تكون من جزاء سيئات تقدمت – وهى مضرة – جاز أن يقال : هى مما أصابه من السيئات ، وهى بذنوب تقدمت .

وعلى كل تقدير : فالذنوب التى يعملها : هى من نفسه ، وإن كانت مقدَّرة عليه ؛ فإنه إذا كان الجزاء – الذى هو مسبب عنها من نفسه – فعمله الذى هو ذلك الجزاء من نفسه بطريق الأوْلى . وكان النبى ﷺ يقول فى خطبته : « نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا » .

وقال له أبو بكر رضى الله عنه : عَلِّمنى دعاء ، فقال : « قل : اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رَبّ كل شىء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت . أعوذ بك من شر نفسى ، وشر الشيطان وشَرَكه ، وأن أقترف على نفسى سوءًا ، أو أجُرّه إلى مسلم – قُلْهُ إذا أصبحت ، وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضجعك » .

فقد بيَّن أن قوله : « فمن نفسك » يتناول العقوبات على الأعمال ، ويتناول الأعمال ، مع أن الكل بقدر الله .

فصـــل

[الرد على القدرية]

١٢ – وليس للقدرية أن يحتجوا بالآية لوجوه :

منها : أنهم يقولون : فعل العبد – حسنة كان ، أو سيئة – هو منه – لا من الله ؛ بل الله قد أعطى كل واحد من الاستطاعة مايفعل به الحسنات والسيئات ؛ لكن هذا عندهم : أحدث إرادة فعل بها الحسنات . وهذا أحدث إرادة فعل بها السيئات ؛ وليس واحد منهما من إحداث الرب عندهم .

والقرآن قد فرق بين الحسنات والسيئات ، وهم لايفرقون فى الأعمال بين الحسنات والسيئات ، إلا من جهة الأمر . لامن جهة كون الله خلق فيه الحسنات دون السيئات : بل هو عندهم لم يخلق لاهذا ولاهذا .

ولكن منهم من يقول : بأنه يحدث من الأعمال الحسنة والسيئة : مايكون جزاء . كما يقول أهل السنة .

لكن على هذا : فليست عندهم كل الحسنات من الله . ولا كل السيئات بل بعض هذا ، وبعض هذا .

الثانى : أنه قال : « كل من عند الله » فجعل الحسنات من عند الله ، كما جعل السيئات من عند الله ، وهم لايقولون بذلك فى الأعمال . بل فى الجزاء .

وقوله بعد هذا : ﴿ ماأصابك من حسنة – ومن سيئة ﴾ مثل قوله : « وإن تصبهم حسنة » وقوله : « إن تصبهم سيئة » .

الثالث : أن الآية بها : النعم ، والمصائب – كما تقدم – وليس للقدرية المجبِّرة أن تحتجّ بهذه الآية على نفى أعمالهم التى استحقوا بها العقاب ، فإن قوله : « كل من عند الله » هو النعم والمصائب ، ولأن قوله : « ماأصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » حجة عليهم ، وبيان أن الإنسان هو فاعل السيئات ، وأنه يستحق عليها العقاب ، والله ينعم عليه بالحسنات – عملها وجزائها – فإنه إذا كان ماأصابهم من حسنة فهو من الله – فالنعم من الله سواء كانت ابتداءً

أو كانت جزاء . وإذا كانت جزاء – وهي من الله –: فالعمل الصالح الذى كان سببها : هو أيضاً من الله أنعم بهما الله على العبد ، وإلا فلو كان هو من نفسه كما كانت السيئات من نفسه – لكان كل ذلك من نفسه ، والله تعالى قد فرَّق بين النوعين فى الكتاب والسنة . كما فى الحديث الصحيح الإلهى ، عن الله – « ياعبادى ، إنما هى أعمالكم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ، وَمَنْ وجد غير ذلك ، فلا يلومنَّ إلا نفسه » وقال تعالى : ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ : أَنَّى هَذَا ؟ قُلْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] ، وقال تعالى ﴿ وَمَاظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ [هود : ١٠١] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ [الزخرف : ٧٦] ، وقال تعالى : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُم أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٨٥] ، وقال تعالى للمؤمنين : ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات : ٧] ، وقد أُمروا أن يقولوا فى الصلاة : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ .

فصل

[لا إشكال فى الآية]

١٣ – وقد ظن طائفة : أن فى الآية إشكالا ، أو تناقضاً فى الظاهر ، حيث قال : « كل من عند الله » ثم فرَّق بين الحسنات والسيئات ، فقال : « ماأصابك من حسنة فمن الله ، وماأصابك من سيئة فمن نفسك » ، وهذا من قلة فهمهم ، وعدم تدبرهم الآية ، وليس فى الآية تناقض ، لافى ظاهرها ولا فى باطنها ، لا فى لفظها ولا فى معناها ، فإنه ذكر عن المنافقين ، والذين فى قلوبهم مرض ، الناكصين عن الجهاد ماذكره بقوله : ﴿ أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُم فِى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ، وَإِنْ

تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا : هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا : هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ [النساء : ٧٨] ، هذا يقولونه لرسول الله ﷺ ، أى بسبب ماأمرتنا من دينك والرجوع عما كنا عليه . أصابتنا هذه السيئات لأنك أمرتنا بما أوجبها . فالسيئات : هى المصائب ، والأعمال التى ظنوا أنها سبب المصائب : هو أمرهم بها .

وقولهم « من عندك » تتناول مصائب الجهاد التى توجب الهزيمة ، لأنه أمرهم بالجهاد ، وتتناول المصائب أيضاً مصائب الرزق على جهة التشاؤم والتطيُّر ، أى هذا عقوبة لنا بسبب دينك . كما كان قوم فرعون يتطيرون بموسى وبمن معه وكما قال أهل القرية للمرسلين : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ [يس : ١٨] ، وكما قال الكفار من ثمود لصالح ولقومه : ﴿ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ [النمل : ٤٧] ، فكانوا يقولون عما يصيبهم — من الحرب والزلزال والجراح والقتل ، وغير ذلك مما يحصل من العدو — هو منك لأنك أمرتنا بالأعمال الموجبة لذلك ، ويقولون عن هذا ، وعن المصائب السماوية : إنها منك ؛ أى بسبب طاعتنا لك ، واتباعنا لدينك : أُصابتنا هذه المصائب ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ﴾ [الحج : ١١] .

فهذا يتناول كل من جعل طاعة الرسول ، وفعل مابعث به : مسبباً لشر أصابه : إما من السماء ، وإما من آدمى . وهؤلاء كثيرون .

لم يقولوا : « هذه من عندك » بمعنى : أنك أنت الذى أحدثتها ، فإنهم يعلمون أن الرسول ﷺ لم يحدث شيئاً من ذلك ، ولم يكن قولهم « من عندك » خطاباً من بعضهم لبعض ، بل هو خطاب للرسول ﷺ .

[قول أعداء الرسل]

١٤ — ومن فهم هذا تبين له أن قوله : « ماأصابك من حسنة فمن الله ، وماأصابك من سيئة فمن نفسك » ولا يناقض قوله : « كل من عند الله » ، بل هو محقق له ، لأنهم — هم ومن أشبههم إلى يوم القيامة — يجعلون ماجاء به الرسول ، والعمل به : سبباً لما قد يصيبهم من مصائب ، وكذلك من أطاعه إلى يوم القيامة .

وكان تارة يقدحون فيما جاء به ، ويقولون : ليس هذا لما أمر الله به ، ولو كان مما أمر الله به : لما جرى على أهله هذا البلاء .

وتارة لايقدحون فى الأصل ؛ لكن يقدحون فى القضية المعينة فيقولون : هذا بسوء تدبير الرسول . كما قال عبد الله بن أُبى بن سلول يوم أُحد – إذ كان رأيه مع رأى النبى ﷺ : أن لايخرجوا من المدينة – فسأله ﷺ ناس ممن كان له رغبة فى الجهاد : أن يخرج ، فوافقهم ، ودخل بيته ولبس لأمته . فلما لبس لأمته ندموا . وقال للنبى ﷺ : « أنت أعلم . فإن شئت أن لا نخرج ، فلا نخرج . فقال : ماينبغى لنبى إذا لبس لأُمته أن ينزعها ، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » يعنى : أن الجهاد يلزم بالشروع ، كما يلزم الحج . لايجوز ترك ماشرع فيه منه إلا عند العجز بالإحصار فى الحج .

فصـــل

[تطيرهم بالمرسلين]

١٥ – والمفسرون ذكروا فى قوله : « وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا : هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ » هذا وهذا .

فعن ابن عباس ، والسدى ، وغيرهما : أنهم يقولون هذا تشاؤماً بدينه . وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . قال بسوء تدبيرك – يعنى كما قاله عبد الله بن أُبى وغيره يوم أُحد – وهم كالذين ﴿ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَاقُتِلُوا ﴾ .

فبكل حال قولهم : « من عندك » هو طعن فيما أمر الله به ورسوله : من الإيمان والجهاد ، وجعل ذلك هو الموجب للمصائب التى تصيب المؤمنين المطيعين . كما أصابتهم يوم أُحد . وتارة تصيب عدوهم ، فيقول الكافرون : هذا بشؤم هؤلاء . كما قال أصحاب القرية للمرسلين : « إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ » ، وكما قال تعالى عن آل فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣١] ، وقال الله تعالى عن قوم صالح : ﴿ قَالُوا اطَّيَّرنا بِكَ وَبِمنْ مَعَكَ قَالَ : طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ [النمل : ٤٧] .

ولما قال أهل القرية ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ، لَئِنْ لَم تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالُوا : طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ ؟ بَلْ أَنْتُم قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ .
[يس : ١٨ ، ١٩]

قال الضحاك فى قوله : « ألا إنما طائرهم عند الله » يقول : الأمر من قِبَل الله . ماأصابكم من أمر ، فمن الله ، بما كسبت أيديكم . وقال ابن أبى طلحة عن ابن عباس « معايبكم » وقال قتادة : « عملكم عند الله » .

وفى رواية غير على : عملكم عند الله « ولكنكم قوم تفتنون » أى تبتلون بطاعة الله ومعصيته . رواهما ابن أبى حاتم وغيره .

وعن ابن إسحاق قال : قالت الرسل : « طائركم معكم » أى أعمالكم .

[معنى « الطائر »]

١٦ – فقد فسروا « الطائر » بالأعمال وجزائها لأنهم كانوا يقولون : إنما أصابنا ما أصابنا من المصائب بذنوب الرسل وأتباعهم .

فبين الله سبحانه . أن طائرهم – وهو الأعمال وجزاؤها – هو عند الله . وهو معهم . فهو معهم لأن أعمالهم وماقدّر من جزائها معهم كما قال تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ ﴾ [الإسراء : ١٣] وهو من الله . لأن الله تعالى قدّر تلك المصائب بأعمالهم ، فمن عنده تتنزل عليهم المصائب ، جزاء على أعمالهم ، لا بسبب الرسل وأتباعهم .

وفى هذا يقال : إنهم إنما يجزون بأعمالهم ، لا بأعمال غيرهم . ولذلك قال فى هذه الآية – لما كان المنافقون والكفار ومن فى قلبه مرض يقول : هذا الذى أصابنا هو بسبب ماجاء به محمد ، عقوبة دينية وصل إلينا – بيّن سبحانه : أن ماأصابهم من المصائب إنما هو بذنوبهم .

ففى هذا ردّ على من أعرض عن طاعة الرسول ﷺ لئلا تصيبه تلك المصائب ، وعلى من انتسب إلى الإيمان بالرسول ، ونسبها إلى فعل ماجاء به الرسول ، وعلى ماأصابته مع كفره بالرسول ، ونسبها إلى ماجاء به الرسول .

فصـــل

[طاعة الرسول ، فتح وخير]

١٧ – والمقصود : أن ماجاء به الرسول ﷺ سبباً لشيء من المصائب . ولا تكون طاعة الله ورسوله قط سبباً لمصيبة ، بل طاعة الله والرسول لاتقتضى إلا جزاء أصحابها بخيرى الدنيا والآخرة . ولكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم ، لابما أطاعوا فيه الله والرسول ، كما لحقهم يوم أُحد بسبب ذنوبهم ، لا بسبب طاعتهم الله ورسوله ﷺ .

[الابتلاء]

١٨ – وكذلكماابتلوا به فى السراء والضراء والزلزال : ليس هو بسبب نفس إيمانهم وطاعتهم ، ولكن امتحنوا به ، ليتخلصوا مما فيهم من الشر ، وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنار ، ليتميز طيبه من خبيثه والنفوس فيها شر ، والامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذى فى نفسه . قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَايُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠ ، ١٤١] قال تعالى : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَافِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَافِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] ، ولهذا قول صالح عليه السلام لقومه « طائركم عند الله ، بل أنتم قوم تفتنون » .

﴿ المصائب أجر للمؤمنين ﴾

١٩ – ولهذا كانت المصائب تكفر سيئات المؤمنين ، وبالصبر عليها ترتفع درجاتهم ، وما أصابهم فى الجهاد من مصائب بأيدى العدو ، فإنه يعظم أجرهم بالصبر عليها .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال : « مامن غازية يغزون فى سبيل الله ، فيسلمون ويغنمون إلا تعجلوا ثلثى أجرهم ، وإن أصيبوا وأخفقوا : تم لهم أجرهم » .

وأما ما يلحقهم من الجوع والعطش والتعب : فذاك يكتب لهم به عمل

صالح ، كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكُفَّارَ وَلَايَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة : ١٢٠] .

وشواهد هذا كثيرة .

فصــل

[محمد لا يأتي – من عند نفسه – لا بنعمة ولا بمصيبة]

• ٢ – والمقصود : أن قوله « وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ : كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ » فإنهم جعلوا مايصيبهم من المصائب بسبب ماجاءهم به الرسول ، وكانوا يقولون : النعمة التي تصيبنا هي من عند الله ، والمصيبة من عند محمد . أي بسبب دينه وما أمر به . فقال تعالى : قل هذا وهذا من عند الله . لا من عند محمد . محمد لا يأتي لا بنعمة ولا بمصيبة : ولهذا قال بعد هذا : « فَمَا لِهَؤُلَاءِ القَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ؟ » .

قال السدي وغيره : هو القرآن ؛ فإن القرآن إذا هم فقهوا مافيه تبين لهم أنه إنما أمرهم بالخير ، والعدل والصدق ، والتوحيد . لم يأمرهم بما يكون سبباً للمصائب ، فإنهم إذا مافهموا مافي القرآن علموا أنه لايكون سبباً للشر مطلقاً .

وهذا مما يبين أن ماأمر الله به يعلم بالأمر به حسنه ونفعه ، وأنه مصلحة للعباد . وليس كما يقول من يقول : قد يأمر الله العباد بما لا مصلحة لهم فيه إذا فعلوه ، بل فيه مضرة لهم .

إنه لو كان كذلك لكان قد يصدقه المتطيرون بالرسل وأتباعهم .

* * *

ومما يوضح أنه لما قال : « مَاأَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَاأَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ » قال بعدها : « وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً . وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً »

فإنه قد شهد له بالرسالة بما أظهره على يديه من الآيات والمعجزات . وإذا شهد الله له كفى به شهيداً . ولم يضره جحد هؤلاء لرسالته ، بما ذكروه من الشُبه التى هى عليهم لا لهم ، بما أرادوا أن يجعلوا سيئاتهم وعقوباتهم حجة على إبطال رسالته . والله تعالى قد شهد له : أنه أرسله للناس رسولا ، فكان ختم الكلام بهذا إبطالا لقولهم ، إن المصائب من عند الرسول . ولهذا قال بعد هذا « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ . وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً » .

فصـــل

[إبطال قول الجهمية والجبرية]

٢١ – وكان فيما ذكره إبطال لقول الجهمية ونحوهم ، ممن يقول : إن الله قد يعذب العباد بلا ذنب . وأنه قد يأمر العباد بما لا ينفعهم ، بل بما يضرهم ، فإن فعلوا ماأمرهم به حصل لهم الضرر ، وإن لم يفعلوه عاقبهم .

يقولون هذا ومثله ، ويزعمون أن هذا لأنه يفعل مايشاء .

والقرآن يرد على هؤلاء من وجوه كثيرة ، كما يرد على المكذبين بالقدر . فالآية ترد على هؤلاء وهؤلاء ، كما تقدم ، مع احتجاج الفريقين بها . وهى حجة على الفريقين .

* * *

فإن قال نفاة القدر : إنما قال فى الحسنة : « هى من الله » وفى السيئة : « هى من نفسك » لأنه يأمر بهذا ، وينهى عن هذا ، باتفاق المسلمين .

قالوا : ونحن نقول : المشيئة ملازمة للأمر . فما أمر به فقد شاءه ، وما لم يأمر به لم يشأه . فكانت مشيئته وأمره حاضة على الطاعة دون المعصية ؛ فلهذا كانت هذه منه دون هذه .

قيل : أما الآية : فقد تبين أن الذين قالوا : « الحسنة من عند الله ، والسيئة من عندك » أرادوا : من عندك يامحمد ، أى بسبب دينك ، فجعلوا رسالة الرسول هى سبب المصائب . وهذا غير مسألة القدر .

وإذا كان قد أريد : أن الطاعة والمعصية – مما قد قيل – كان قوله : « كل من عند الله » حجة عليكم كما تقدم .

وقوله بعد هذا : « ماأصابك من حسنة فمن الله وماأصابك من سيئة فمن نفسك » لا ينافى ذلك . بل « الحسنة » أنعم الله بها وبثوابها . و « السيئة » هى من نفس الإنسان ناشئة ، وإن كانت بقضائه وقدره ، كما قال تعالى : ﴿ مِنْ شَرِّ مَاخَلَقَ ﴾ [الفلق : ٢] . فمن المخلوقات ماله شر ، وإن كانت بقضائه وقدره .

وأنتم تقولون : الطاعة والمعصية هما من إحداث الإنسان ، بدون أن يجعل الله هذا فاعلا وهذا فاعلا ، وبدون أن يخص الله المؤمن بنعمة ورحمة أطاعه بها ، وهذا مخالف للقرآن .

فصـــل

[الفرق بين الحسنات والسيئات]

٢٢ – فإن قيل : إذا كانت الطاعات والمعاصى مقدرة ، والنعم والمصائب مقدرة . فما الفرق بين الحسنات ، التى هى النعم ، والسيئات ، التى هى المصائب ؟ فجعل هذه من عند الله ، وهذه من نفس الإنسان ؟

قيل : لفروق بينهما :

الفرق الأول : أن نعم الله وإحسانه إلى عباده يقع ابتلاء بلا سبب منهم أصلا ، فهو ينعم بالعافية والرزق والنصر وغير ذلك على من لم يعمل خيراً قط ، وينشىء للجنة خلقاً يسكنهم فضول الجنة ، وقد خلقهم فى الآخرة لم يعملوا خيراً . ويدخل أطفال المؤمنين ومجانينهم الجنة برحمته بلا عمل ، وأما العقاب : فلا يعاقب أحداً إلا بعمله .

الفرق الثانى : أن الذى يعمل الحسنات . إذا عملها ، فنفس عمله الحسنات : هو من إحسان الله ، وبفضله عليه بالهداية والإيمان ، كما قال أهل الجنة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا . وَمَاكُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣] .

وفى الحديث الصحيح : « ياعبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم

أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه » .

فنفس خلق الله لهم أحياء ، وجعله لهم السمع والأبصار والأفئدة ، هو من نعمته . ونفس إرسال الرسول إليهم ، وتبليغه البلاغ المبين الذى اهتدوا به : هو من نعمته : وإلهامهم الإيمان ، وهدايتهم إليه ، وتخصيصهم بمزيد نعمة حصل لهم بها الإيمان دون الكافرين ، هو من نعمته : كما قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ ، وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ . وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ . فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً ﴾ [الحجرات : ٧ ، ٨] .

فجميع مايتقلب فيه العالم من خيرى الدنيا والآخرة . هو نعمة محضة منه بلا سبب سابق يوجب لهم حقاً . ولا حول ولا قوة لهم من أنفسهم إلا به . وهو خالق نفوسهم ، وخالق أعمالها الصالحة ، وخالق الجزاء .

فقوله : « ماأصابك من حسنة فمن الله » حق من كل وجه ظاهراً وباطناً على مذهب أهل السنة .

وأما « السيئة » فلا تكون إلا بذنب العبد . وذنبه من نفسه . وهو لم يقل : إنى لم أقدر ذلك ولم أخلقه ، بل ذكر للناس ما ينفعهم .

فصل

[الشكر والاستغفار]

٢٣ – فإذا تدبَّر العبد علم أن ماهو فيه من الحسنات من فضل الله ، فشكر الله . فزاده الله من فضله عملا صالحاً ، ونعماً يفيضها عليه ، وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه بذنوبه ، استغفر وتاب ، فزال عنه سبب الشر ، فيكون العبد دائماً شاكراً مستغفراً ، فلا يزال الخير يتضاعف له ، والشر يندفع عنه ، كما كان النبى ﷺ يقول فى خطبته : « الحمد لله » فيشكر الله ثم يقول « نستعينه ونستغفره » نستعينه على الطاعة ، ونستغفره من المعصية . ثم يقول « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا » فيستعيذ به من الشر الذى فى النفس ، ومن عقوبة عمله : فليس الشر إلا من نفسه ومن عمل نفسه . فيستعيذ الله من شر النفس أن

من شر النفس أن يعمل بسبب سيئاته الخطايا ، ثم إذا عمل استعاذ بالله من سيئات عمله ، ومن عقوبات عمله فاستعانه على الطاعة وأسبابها . واستعاذ به من المعصية وعقابها .

فعلم العبد بأن ماأصابه من حسنة فمن الله ، وما أصابه من سيئة فمن نفسه . يوجب له هذا وهذا . فهو سبحانه فرّق بينهما هنا ، بعد أن جمع بينهما فى قوله : « قل كل من عند الله » .

فبيّن أن الحسنات والسيئات : النعم والمصائب ، والطاعات والمعاصى . على قول من أدخلها فى « من عند الله » .

ثم بيّن الفرق الذى ينتفعون به . وهو أن هذا الخير من نعمة الله ، فاشكروه يزدكم . وهذا الشر من ذنوبكم فاستغفروه يدفعه عنكم .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣] . وقال تعالى : ﴿ آلر . كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ . أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ . وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [هود : ١ - ٣] .

[التأسى بالسعداء]

٢٤ - والمذنب إذا استغفر ربه من ذنبه فقد تأسّى بالسعداء من الأنبياء والمؤمنين كآدم وغيره وإذا أصرّ واحتج بالقدر . فقد تأسى بالأشقياء ، كإبليس ومن اتبعه من الغاوين .

فكان من ذكره : أن السيئة من نفس الإنسان بذنوبه ، بعد أن ذكر : أن الجميع من عند الله ، تنبيهاً عن الاستغفار والتوبة ، والاستعاذة بالله من شر نفسه وسيئات عمله والدعاء بذلك فى الصباح والمساء ، وعند المنام ، كما أمر رسول الله ﷺ بذلك أبا بكر الصديق ، أفضل الأمة ، حيث علمه أن يقول : « اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسى سوءاً ، أو أجرّه إلى مسلم » .

فيستغفر مما مضى . ويستعيذ مما يستقبل . فيكون من حزب السعداء .

وإذا علم أن الحسنة من الله – الجزاء والعمل – سأله أن يعينه على فعل الحسنات بقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وبقوله : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وقوله : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران : ٨] . ونحو ذلك .

وأما إذا أخبر أن الجميع من عند الله فقط ، ولم يذكر الفرق : فإنه يحصل من هذه التسوية ، إعراض العاصى والمذنب عن ذم نفسه ، وعن التوبة من ذنوبها ، والاستعاذة من شرها . بل وقام فى نفسه ، أن يحتج على الله بالقدر : وتلك حجة داحضة ، لا تنفعه : بل تزيده عذاباً وشقاءً ، كما زادت إبليس لما قال : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف : ١٦] . ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : ٣٩] .

وكالذين يقولون يوم القيامة : ﴿ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِى لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزمر : ٥٧] ، وكالذين قالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللهُ مَاأَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

فمن احتج بالقدر على مافعله من ذنوبه ، وأعرض عما أمر الله ، من التوبة والاستغفار ، والاستعانة بالله ، والاستعاذة به ، واستهدائه : كان من أخسر الناس فى الدنيا والآخرة . فهذا من فوائد ذكر الفرق بين الجميع .

فصـــل

[مضاعفة الحسنات]

٢٥ – الفرق الثالث – أن الحسنة يضاعفها وينميها ويثيبُ على الهمِّ بها والسيئة لا يضاعفها ، ولا يؤاخذ على الهمِّ بها . فيعطى صاحب الحسنة من الحسنات فوق ماعمل . وصاحب السيئة لايجزيه إلا بقدر عمله . قال تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٦٠] .

الفرق الرابع – أن الحسنة مضافة إليه ، لأنه أحسن بها من كل وجه ، كما تقدم . فما من وجه من وجوهها إلا وهو يقتضى الإضافة إليه . وأما السيئة فهو إنما يخلقها بحكمة . وهى باعتبار تلك الحكمة من إحصانه . فإن الرب لا يفعل سيئة قط . بل فعله كله حسن وحسنات . وفعله كله خير .

ولهذا كان النبى ﷺ يقول فى دعاء الاستفتاح : « والخير بيديك ، والشر ليس إليك » فإنه لايخلق شراً محضاً . بل كل مايخلقه ففيه حكمة . هو باعتبارها خير . ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس . وهو شر جزئى إضافى . فأما شر كلى ، أو شر مطلق ، فالرب منزه عنه . وهذا هو الشر الذى ليس إليه .

وأما الشر الجزئى الإضافى : فهو خير باعتبار حكمته . ولهذا لا يضاف الشر إليه مفرداً قط . بل إما أن يدخل فى عموم المخلوقات ، كقوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الفرقان : ٢] .

وإما أن يضاف إلى السبب كقوله : ﴿ مِنْ شَرِّ مَاخَلَقَ ﴾ [الفلق : ٢] .

وإما أن يحذف فاعله ، كقول الجن : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِى الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾ [الجن : ١٠] .

* * *

[القدر بين المغالين فيه والمكذبين به]

٢٦ – وهذا الموضع ضلَّ فيه فريقان من الناس الخائضين فى القدر بالباطل : فرقة كذبت بهذا ، وقالت : إنه لايخلق أفعال العباد ، ولايشاء كل مايكون ، لأن الذنوب قبيحة ، وهو لايفعل القبيح ، وإرادتها قبيحة ، وهو لايريد القبيح .

وفرقة لما رأت أنه خالق هذا كله ولم تؤمن أنه خلق هذا لحكمة ، بل قالت إذا كان يخلق هذا : فيجوز أن يخلق كل شر ، ولا يخلق شيئاً لحكمة ، وماثم فعل تنزه عنه ، بل كل ماكان ممكناً جاز أن يفعله . وجوَّزوا : أن يأمر بكل كفر ومعصية ، وينهى عن كل إيمان وطاعة ، وصدق وعدل ، وأن يعذِّب الأنبياء وينعِّم الفراعنة والمشركين ، وغير ذلك ، ولم يفرقوا بين مفعول ومفعول .

وهذا منكر من القول وزور ، كالأول . وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ : أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَايَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ؟ مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم : ٣٥ ، ٣٦] وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] ، ونحو ذلك ، يوجب أن يفرق بين الحسنات والسيئات ، وبين المحسن والمسيء . وأن من جوَّز عليه التسوية بينهما ، فقد أتى بقول منكر ، وزور ينكر عليه .

[الحكمة فى تعذيب الحيوان]

٢٧– وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان : لايكون فيه حكمة ، بل فيه من الحكمة والرحمة مايخفى على بعضهم مما لا يقدر قدره إلا الله .

وليس إذا وقع فى المخلوقات ماهو شر جزئى بالإضافة ، يكون شراً كلياً عاماً ، بل الأمور العامة الكلية لاتكون إلا خيراً ومصلحة للعباد ، كالمطر العام وكإرسال رسول عام .

وهذا مما يقتضى : أنه لايجوز أن يؤيد الله كذاباً عليه بالمعجزات التى أيَّد بها أنبياءه الصادقين ، فإن هذا شر عام للناس ، يضلهم ويفسد عليهم دينهم ودنياهم وآخرتهم .

وليس هذا كالملك الظالم ، والعدو . فإن الملك الظالم : لابد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه .

وقد قيل : ستون سنة بإمام ظالم ، خير من ليلة واحدة بلا إمام .

وإذا قدر كثرة ظلمه ، فذاك ضرر فى الدين ، كالمصائب تكون كفارة لذنوبهم ويثابون عليها ، ويرجعون فيها إلى الله ، ويستغفرونه ويتوبون إليه[1] ، وكذلك مايتسلط عليهم من العدو .

وأما من يكذب على الله ، ويقول – أى يدعى – أنه نبى : فلو أيده الله تأييد الصادق ، للزم أن يسوى بينه وبين الصادق ، فيستوى الهدى والضلال ، والخير

والشر ، وطريق الجنة وطريق النار ، ويرتفع التمييز بين هذا وهذا ، وهذا مايوجب الفساد العام للناس فى دينهم ودنياهم وآخرتهم .

ولهذا أمر النبى ﷺ بقتال من يقاتل على الدين الفاسد من أهل البدع ، كالخوارج . وأمر بالصبر على جور الأئمة ، ونهى عن قتالهم والخروج عليهم ، ولهذا قد يمكن الله كثيراً من الملوك الظالمين مدة .

وأما المتنبئون الكذابون : فلا يطيل تمكينهم . بل لابد أن يهلكهم لأن فسادهم عام فى الدين والدنيا والآخرة . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِاليَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ – ٤٦] . وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ [الشورى : ٢٤] فأخبر : أنه – بتقدير الافتراء – لابد أن يعاقب من افترى عليه .

فصـــل

[الشر الخاص ، والعام]

٢٨ – وهذا الموضع مما اضطرب فيه الناس . فاستدلت القدرية النفاة والمجبرة على أنه إذا جاز أن يضل شخصاً : جاز أن يضل كل الناس ، وإذا جاز أن يعذّب حيواناً بلا ذنب ولا عوض : جاز أن يعذب كل حى بلا ذنب ولا عوض . وإذا جاز عليه أن لايعين واحداً ممن أمره على طاعة أمره ، جاز أن لا يعين كل الخلق . فلم تفرق الطائفتان بين الشر الخاص والعام وبين الشر الإضافى والشر المطلق . ولم يجعلوا فى الشر الإضافى حكمة يصير بها من قسم الخير .

ثم قال النفاة : وقد علم أنه منزه عن تلك الأفعال . فإنا لو جوزنا عليه هذا لجوزنا عليه تأييد الكذاب بالمعجزات ، وتعذيب الأنبياء وإكرام الكفار ، وغير ذلك ، مما يستعظم العقلاء إضافته إلى الله تعالى . فقالت المثبتة من الجهمية المجبرة : بل كل الأفعال جائزة عليه ، كما جاز ذلك على الخاص : وإنما يعلم أنه لا يفعل بما لا يفعل ، أو بفعل مايعمل : بالخير ، خبر الأنبياء عنه . وإلا فمهما قدر ؛ جاز أن يفعله . وجاز أن لايفعله ليس فى نفس الأمر سبب ولا حكمة ، ولا صفة تقتضى

التخصيص ببعض الأفعال دون بعض بل ليس إلا مشيئة ، نسبتها إلى جميع الحوادث سواء . ترجح أحد المتماثلين بلا مرجح .

فقيل لهم : فيجوز تأييد الكذاب بالمعجز . فلا يبقى المعجز دليلا على صدق الأنبياء . فلا يبقى خبر نبى يعلم به الفرق . فيلزم – مع الكفر بالأنبياء – أن لا يعلم الفرق ، ولا يسمع ولا يعقل .

[المعجزات]

٢٩ – فاحتالوا للفرق بين المعجزات وغيرها . بأن تجويز إتيان الكذاب بالمعجزات يستلزم تعجيز البارى تعالى عما به يفرق بين الصادق والكاذب . أو لأن دلالتها على الصدق معلوم بالاضطرار . كما قد بسط الكلام على ذلك فى غير هذا الموضع . وبين خطأ الطائفين . وأن هؤلاء الذين اتبعوا جهماً فى الخبر – ونفوا حكمة الله ورحمته ، والأسباب التى بها يفعل ، وما خلقه من القوى وغيرها – هم مبتدعة مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مع مخالفتهم لصريح المعقول . كما أن القدرية النفاة : مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مع مخالفتهم لصريح المعقول .

فصــــل

والمقصود هنا الكلام على قوله : ﴿ مَاأَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَاأَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ وأن هذه تقتضى : أن العبد لايزال شاكراً مستغفراً .

[إضافة الشر إلى الله]

٣٠ – وقد ذكر : أن الشر لا يضاف إلى الله ، إلا على أحد الوجوه الثلاثة . وقد تضمنت الفاتحة للأقسام الثلاثة ، هو سبحانه : الرحمن الذى وسعت رحمته كل شىء . وفى الصحيح عن النبى ﷺ : « أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها » وقد سبقت وغلبت رحمته غضبه ، وهو الغفور الودود ، الحليم الرحيم .

فإرادته : أصل كل خير ونعمة ، وكل خير ونعمة فمنه ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ [النحل . ٥٣] .

وقد قال سبحانه : ﴿ نبئ عبادى : أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ ثم قال : ﴿ وأنَّ عذابى هو العذاب الأليم ﴾ [الحجر : ٤٩ ، ٥٠] . وقال تعالى : ﴿ اعلموا أنَّ الله شديد العقاب وأنَّ الله غفورٌ رحيمٌ ﴾ [المائدة : ٩٨] . فالمغفرة والرحمة من صفاته المذكورة بأسمائه . فهى من موجب نفسه المقدسة ، ومقتضاها ولوازمها .

وأما العذاب : فمن مخلوقاته ، الذى خلقه بحكمة ، هو باعتبارها حكمة ورحمة ، فالإنسان لا يأتيه الخير إلا من ربه وإحسانه وجوده . ولا يأتيه الشر إلا من نفسه . فما أصابه من حسنة : فمن الله . وما أصابه من سيئة : فمن نفسه .

* * *

[خطاب الرسول فى القرآن]

٣١ – وقوله : « وما أصابك » إما أن تكون كاف الخطاب له ﷺ – كما قال ابن عباس وغيره – وهو الأظهر . لقوله بعد ذلك : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا ﴾ .

وإما أن تكون لكل واحد من الآدميين ، كقوله : ﴿ ياأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ [الانفطار : ٦] .

لكن هذا ضعيف ، فإنه لم يتقدم هنا ذكر الإنسان ولا مكانه . وإنما تقدم ذكر طائفة قالوا ماقالوه . فلو أريد ذكرهم : لقيل : « ما أصابهم من حسنة فمن الله وما أصابهم من سيئة » .

لكن خوطب الرسول بهذا ، لأنه سيد ولد آدم . وإذا كان هذا حكمه كان هذا حكم غيره بطريق الأولى والأحرى . كما فى مثل قوله : ﴿ اتَّقِ الله وَلَا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ ﴾ [الأحزاب : ١] . وقوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : ٦٥] . وقوله : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [يونس : ٩٤] .

ثم هذا الخطاب نوعان : نوع يختص لفظه به . لكن يتناول غيره بطريق الأولى ، كقوله : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَاأَحَلَّ اللهُ لَكَ ، تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ﴾ ؟ ثم قال : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ [التحريم : ١ ، ٢] .

ونوع : قد يكون خطابه به خطاباً لجميع الناس ، كما يقول كثير من المفسرين : الخطاب له . والمراد غيره .

وليس المعنى أنه لم يخاطب بذلك ، بل هو المقدم . فالخطاب له خطاب لجميع الجنس البشرى ، وإن كان هو لا يقع منه مانهى عنه . ولا يترك ماأمر به . بل هذا يقع من غيره . كما يقول ولى الأمر للأمير : سافر غداً إلى المكان الفلانى . أى أنت ومن معك من العسكر . وكما ينهى أعز من عنده عن شىء . فيكون نهياً لمن دونه . وهذا معروف من الخطاب .

فقوله : « ماأصابك من حسنة فمن الله . وماأصابك من سيئة فمن نفسك » الخطاب له ﷺ . وجميع الخلق داخلون فى هذا الخطاب بالعموم ، وبطريق الأولى . خلاف قوله : « وأرسلناك للناس رسولا » فإن هذا له خاصة . ولكن من يبلغ عنه يدخل فى معنى الخطاب . كما قال ﷺ : « بلّغوا عنى ولو آية » وقال : « نضَّر الله امرءا سمع منا حديثاً فبلّغه إلى من لم يسمعه » وقال : « ليبلغ الشاهد الغائب » وقال : « إن العلماء ورثة الأنبياء » وقد قال تعالى فى القرآن : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] .

* * *

[أفعال الله الحسنة]

٣٢ – والمقصود هنا : أن « الحسنة » مضافة إليه سبحانه من كل وجه و « السيئة » مضافة إليه لأنه خلقها كما خلق « الحسنة » فلهذا قال : « كل من عند الله » . ثم إنه إنما خلقها لحكمة . ولا تضاف إليه من جهة أنها سيئة ، بل تضاف إلى النفس التى تفعل الشر بها لا لحكمة . فتستحق أن يضاف الشر والسيئة إليها . فإنها لا تقصد بما تفعله من الذنوب خيراً ، يكون فعله لأجله أرجح . بل ماكان هكذا فهو من باب الحسنات . ولهذا كان فعل الله حسناً ، لا يفعل قبيحاً ولا سيئاً قط .

وقد دخل فى هذا سيئات الجزاء والعمل ، لأن المراد بقوله : « ماأصابك من حسنة – ومن سيئة » النعم والمصائب ، كما تقدم . لكن إذا كانت المصيبة من نفسه

– لأنه أذنب – فالذنب من نفسه بطريق الأولى . فالسيئات من نفسه بلا ريب ، وإنما جعلها منه مع الحسنة بقوله : « كل من عند الله » كما تقدم. لأنها لاتضاف إلى الله مفردة ، بل إما فى العموم ، كقوله : « كل من عند الله » .

وكذلك الأسماء التى فيها ذكر ، لا تذكر الشر إلا مقرونة ، كقولنا « الضار النافع ، المعطى المانع ، المعز المذل » أو مقيدة ، كقوله : ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾ [السجدة : ٢٢] .

وكل ماخلقه – مما فيه شر جزئى إضافى – ففيه من الخير العام والحكمة والرحمة أضعاف ذلك .

مثل : إرسال موسى إلى فرعون ، فإنه حصل به التكذيب والهلاك لفرعون وقومه ، وذلك شر بالإضافة إليهم ، لكن ماحصل به – من النفع العام للخلق إلى يوم القيامة ، والاعتبار بقصة فرعون - ماهو إلا خير عام . فانتفع بذلك أضعاف أضعاف من استضرَّ به . كما قال تعالى : ﴿ فلمّا آسفُونَا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ . فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمثَلًا لِلآخِرِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٥ ، ٥٦] . وقال تعالى بعد ذكر قصته : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ [النازعات : ٢٦] .

وكذلك محمد ﷺ شَقِىَ برسالته طائفة من مشركى العرب وكفار أهل الكتاب ، وهم الذين كذبوه ، وأهلكهم الله تعالى بسببه ، ولكن سَعِدَ بها أضعاف أضعاف هؤلاء .

ولذلك من شقى به من أهل الكتاب كانوا مبدِّلين محرِّفين قبل أن يبعث الله محمداً ﷺ ، فأهلك الله بالجهاد طائفة . واهتدى به من أهل الكتاب أضعاف أضعاف أولئك .

والذين أذلهم الله من أهل الكتاب بالقهر والصغار ، أو من المشركين الذين أحدث فيهم الصغار ، فهؤلاء كان قهرهم رحمة لهم ، لئلا يعظم كفرهم ، ويكثر شرهم .

ثم بعدهم حصل من الهدى والرحمة لغيرهم مالا يحصيهم إلا الله . وهم دائماً يهتدى منهم ناس من بعد ناس ببركة ظهور دينه بالحجة واليد .

فالمصلحة بإرساله وإعزازه ، وإظهار دينه ، فيها من الرحمة التى حصلت بذلك مالا نسبة لها إلى ماحصل بذلك لبعض الناس من شر جزئى إضافى ، لما فى ذلك من الخير والحكمة أيضاً ، إذ ليس فيما خلقه الله سبحانه شرّ محض أصلا ، بل هو شر بالإضافة .

فصــل

[الحسنات أمور وجودية]

٣٣ - الفرق الخامس : أن مايحصل للإنسان من الحسنات التى يعملها كلها أمور وجودية . أنعم الله بها عليه ، وحصلت بمشيئة الله ورحمته وحكمته وقدرته وخلقه ، ليس فى الحسنات أمر عدمى غير مضاف إلى الله ، بل كلها أمر وجودى . وكل موجود وحادث فالله هو الذى يحدثه .

وذلك : أن الحسنات إما فعل مأمور به ، أو ترك منهى عنه . والترك : أمر وجودى . فترك الإنسان لما نهى عنه ، ومعرفته بأنه ذنب قبيح ، وبأنه سبب للعذاب ، وبغضه وكراهته له ، ومنع نفسه منه إذا هويته ، واشتهته وطلبته . كل هذه أمور وجودية ، كما أن معرفته بأن الحسنات كالعدل والصدق - حسنة ، وفعله لها أمور وجودية .

ولهذا إنما يثاب الإنسان على فعل الحسنات إذا فعلها محباً لها بنيّة وقصد فعلها ابتغاء وجه ربه ، وطاعة لله ولرسوله ، ويثاب على ترك السيئات إذا تركها بالكراهة لها ، والامتناع منها . قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ ، وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات : ٧] . وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى فَإِنَّ الجَنَّةَ هِىَ المَأْوَى ﴾ [النازعات : ٤١] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

وفى الصحيحين عن أنس عن النبى ﷺ أنه قال : « ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء

لم يحبه إلا لله . ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر – بعد إذ أنقذه الله منه – كما يكره أن يلقى فى النار » .

وفى السنن عن البراء بن عازب عن النبى ﷺ : « أوثق عرى الإيمان : الحب فى الله ، والبغض فى الله » .

وفيها عن أبى أمامة عن النبى ﷺ : « من أحبَّ لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » .

وفى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ؛ وذلك أضعف الإيمان » .

وفى الصحيح من حديث ابن مسعود رضى الله عنه – لما ذكر الخلوف – قال : « من جاهدهم بيديه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » .

وقد قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ : إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ ومِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ والبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ، إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ : لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَاأَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وقال على لسان الخليل : ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف : ٢٦ ، ٢٧] وقال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَاكُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ؟ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِى إِلَّا رَبَّ العَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٧٥ – ٧٧] وقال : ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ حَنِيفاً وَمَاأَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٨ ، ٧٩] .

فهذا البغض والعداوة والبراءة مما يعبد من دون الله ومن عابديه : هى أمور موجودة فى القلب ، وعلى اللسان والجوارح ، كما أن حب الله وموالاته وموالاة أوليائه : أمور موجودة فى القلب : وعلى اللسان والجوارح وهى تحقيق قول : « لا إله إلا

الله » ، وهو إثبات تأليه القلب لله حباً خالصاً وذلا صادقاً . ومنع تأليهه لغير الله ، وبغض ذلك وكراهته ، فلا يعبد إلا الله . ويجب أن يعبده ويبغض عبادة غيره . ويجب التوكل عليه وخشيته ودعاؤه ويبغض المتوكل على غيره وخشيته ودعاءه .

فهذه كلها أمور موجودة فى القلب ، وهى الحسنات التى يثيب الله عليها .

وأما مجرد عدم السيئات ، من غير أن يعرف أنها سيئة ، ولا يكرهها ، بل لا يفعلها لكونها لم تخطر بباله ، أو تخطر كما تخطر الجمادات التى لايحبها ولا يبغضها – فهذا لايثاب على عدم مايفعله من السيئات ، ولكن لايعاقب أيضاً على فعلها ، فكأنه لم يفعلها ، فهذا تكون السيئات فى حقه بمنزلتها فى حق الطفل والمجنون والبهيمة ، لاثواب ولا عقاب .

ولكن إذا قامت عليه الحجة بعلمه تحريمها ، فإن لم يعتقد تحريمها ويكرهها وإلا عوقب على ترك الإيمان بتحريمها .

فصـــل

[هل الترك أمر وجودى أو عدمى]

٣٤ – وقد تنازع الناس فى الترك : هل هو أمر وجودى أو عدمى ؟ والأكثرون على أنه وجودى .

وقالت طائفة – كأبى هاشم الجبائى – إنه عدمى وأن المأمور يعاقب على مجرد عدم الفعل ، لا على ترك يقوم بنفسه . ويسمون « الذمية » لأنهم رتبوا الذم على العدم المحض .

الأكثرون يقولون : الترك أمر وجودى . فلا يثاب من ترك محظور إلا على ترك يقوم بنفسه . وتارك الأمور : إنما يعاقب على ترك يقوم بنفسه ، وهو أن يأمره الرسول ﷺ بالفعل فيمتنع . فهذا الامتناع أمر وجودى .

ولذلك فهو يشتغل عما أمر به بفعل ضده ، كما يشتغل عن عبادة الله وحده بعبادة غيره ، فيعاقب على ذلك .

[الإنسان إما عابد لله أو عابد للشيطان]

٣٥ – ولهذا كان كل من لم يعبد الله وحده فلابد أنه يكون عابداً لغيره يعبد غيره فيكون مشركا . وليس فى بنى آدم قسم ثالث ، بل إما موحِّد ، أو مشرك ، أو من خلط هذا بهذا كالمبدلين من أهل الملل ، والنصارى ومن أشبهم من الضلال المنتسبين إلى الإمام . قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : ٩٨ – ١٠٠] وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر : ٤٢] لما قال إبليس : ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر : ٣٩ ، ٤٠] قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ .

فإبليس لايغوى المخلصين ولا سلطان له عليهم ، إنما سلطانه على الغاوين . وهم الذين يتولونه ، وهم الذين به مشركون .

وقوله : « الذين يتولونه والذين هم به مشركون » صفتان لموصوف واحد ، فكل من تولاه فهو به مشرك ، وكل من أشرك به فقد تولاه .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِى آدَمَ أَنْ لَاتَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ؟ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِى هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [يس : ٦٠ ، ٦١] .

وكل من عبد غير الله فإنما يعبد الشيطان ، وإن كان يظن أنه يعبد الملائكة والأنبياء . وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ : أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا : سُبْحَانَكَ ! أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٤٠ ، ٤١] .

ولهذا يتمثل الشياطين [1] لمن يعبد الملائكة والأنبياء والصالحين ، ويخاطبونهم

(١) الشيطان الذى يقول عنه الإمام ابن تيمية إنه يتمثل أو يسمع صوته إنما هو شيطان الإنس . أما شيطان الجن فقد قال الله تعالى عنه : ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم ﴾ .

فيظنون أن الذى خاطبهم ملك أو نبى ، أو ولىّ . وإنما هو شيطان ، جعل نفسه ملكا من الملائكة كما يصيب عبّاد الكواكب وأصحاب العزائم والطلسمات يسمون أسماء ، يقولون : هى أسماء الملائكة ، مثل ميططرون وغيره : وإنما هى أسماء الجن .

وكذلك الذين يدعون المخلوقين من الأنبياء والأولياء والملائكة قد يتمثل لأحدهم من يخاطبه ، فيظنه النبى . أو الصالح الذى دعاه . وإنما هو شيطان تصور فى صورته ، أو قال : أنا هو ، لمن لم يعرف صورة ذلك المدعو .

وهذا الشر يجرى لمن يدعو المخلوقين ، من النصارى ومن المنتسبين إلى الإسلام يدعونهم عند قبورهم ، أو مغيبهم ، ويستغيثون بهم . فيأتيهم من يقول : إنه ذلك المستغاث به فى صورة آدمى راكباً ، أو غير راكب . فيعتقد المغيث أنه ذلك النبى ، والصالح ، أو أنه سره أو روحانيته ، أو رقيقته تشكل . أو يقول أنه ملك جاء على صورته ، وإنما هو شيطان يغويه ، لكونه أشرك بالله ودعا غيره الميت من دونه . فصار للشيطان عليه سلطان بذلك الشرك . فظن أنه يدعو النبى ، أو الصالح ، أو الملك وأنه هو الذى شفع له ، أو هو الذى أجاب دعوته . وإنما هو الشيطان ، ليزيده غلواً فى كفره وضلاله .

فكل من لم يعبد الله مخلصاً له الدين ، فلابد أن يكون مشركا عابداً لغير الله . وهو فى الحقيقة : عابد للشيطان .

فكل واحد من بنى آدم إما عابد للرحمن ، وإما عابد للشيطان . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ . حَتى إِذَا جَاءَنَا قَالَ : يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ القَرِينُ . وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٦ – ٣٩] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج : ١٧] .

فبنو آدم منحصرون فى الأصناف الستة : وبسط هذا له موضع آخر .

فصـــل

والمقصود هنا : أن الثواب والعقاب إنما يكون على عمل وجودى بفعل الحسنات ، كعبادة الله وحده ، وترك السيئات ، كترك الشرك ؛ أمر وجودى .

وفعل السيئات ، مثل ترك التوحيد ، وعبادة غير الله ؛ أمر وجودى .

قال تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [القصص : ٨٤] وقال تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء : ٧] وقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : ٤٦] وقال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ – إلى قوله – أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس : ٢٦ ، ٢٧] وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا : السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ . [الروم : ١٠]

فأما عدم الحسنات والسيئات ، فجزاؤه عدم الثواب والعقاب .

وإذا فرض رجل آمن بالرسول مجملا ، وبقى مدة لايفعل كثيراً من المحرمات . ولا سمع أنها محرمة ، فلم يعتقد تحريمها ، مثل من آمن ولم يعلم أن الله حرم الميتة والدم ولحم الخنزير ، ولا علم أنه حرم نكاح الأقارب سوى أربعة أصناف ، ولا حرم بالمصاهرة أربعة أصناف – حرم على كل من الزوجين أصول الآخر وفروعه – فإذا آمن ولم يفعل هذه المحرمات ، ولا اعتقد تحريمها لأنه لم يسمع ذلك ، فهو لايثاب ولا يعاقب .

ولكن إذا علم التحريم فاعتقده : أثيب على اعتقاده ، وإذا ترك ذلكُ – دعاء النفس إليه – أثيب ثواباً آخر كالذى تدعوه نفسه إلى الشهوات فينهاها ، وكالصائم الذى تشتهى نفسه الأكل والجماع فينهاها ، والذى تشتهى نفسه شرب الخمر والفواحش فينهاها ، فهذا يثاب ثواباً آخر ، بحسب نهيه لنفسه ، وصبره على المحرمات ، واشتغاله بالطاعات التى ضدها . فإذا فعل تلك الطاعات كانت مانعة له عن المحرمات .

وإذا تبين هذا : فالحسنات التى يثاب عليها كلها وجودية ، نعمة من الله تعالى ، وماأحبته النفس من ذلك ، وكرهته من السيئات : فهو الذى حَبَّبَ الإيمان إلى المؤمنين وَزَيَّنَه فى قلوبهم وكَرَّهَ إليهم الكفر والفسوق والعصيان .

فصـــل

[منشأ السيئات : الجهل]

٣٦ - وأما السيئات ، فمنشؤها الجهل والظلم ، فإن أحداً لايفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة ، أو لهواه وميل نفسه إليها .

ولا يترك حسنة واجبة إلا لعدم علمه بوجوبها ، أو لبغض نفسه لها .

وفى الحقيقة ، فالسيئات كلها ترجع إلى الجهل ، وإلا فلو كان عالماً علماً نافعاً بأن فعل هذا يضره ضرراً راجحاً ، لم يفعله ، فإن هذا خاصية العاقل ، ولهذا إذا كان من الحسنات مايعلم أنه يضره ضرراً راجحاً ، كالسقوط من مكان عالٍ ، أو فى نهر يغرقه ، أو المرور بجنب مائل ، أو دخول نار متأججة ، أو رمى ماله فى البحر ونحو ذلك ، لم يفعله ، لعلمه بأن هذا ضرر لا منفعة فيه ، ومن لم يعلم أن هذا يضره ، كالصبى ، والمجنون ، والساهى ، والغافل - فقد يفعل ذلك .

ومن أقدم على مايضره - مع علمه من الضرر عليه - فلظنه أن منفعته راجحة .

فأما أن يجزم بضررٍ مرجوح ، أو يظن أن الخير راجح فلابد من رجحان الخير ، إما فى الظن وإما فى المظنون ، كالذى يركب البحر ويسافر الأسفار البعيدة للربح ، فإنه لو جزم بأنه يغرق أو يخسر لما سافر ، لكنه يترجح عنده السلامة والربح ، وإن كان مخطئاً فى هذا الظن .

وكذلك الذنوب إذا جزم السارق بأنه يؤخذ ويقطع ، لم يسرق ، وكذلك الزانى : إذا جزم بأنه يرجم ، لم يزن ، والشارب يختلف حاله ، فقد يقدم على جلد أربعين وثمانين ، ويديم الشرب مع ذلك ، ولهذا كان الصحيح ، أن عقوبة الشارب غير محدودة ، بل يجوز أن تنتهى إلى القتل ، إذا لم ينته إلا بذلك ، كما جاءت بذلك الأحاديث ، كما هو مذكور فى غير هذا الموضع .

وكذلك العقوبات متى جزم طالب الذنب بأنه يحصل له به الضرر

الراجح لم يفعله ، بل إما أن لايكون جازماً بتحريمه ، أو يكون غير جازم بعقوبته ، بل يرجو العفو بحسنات ، أو توبة ، أو بعفو الله ، أو يغفل عن هذا كله ، ولا يستحضر تحريماً ، ولا وعيداً ، فيبقى غافلا ، غير مستحضر للتحريم : والغفلة من أضداد العلم .

فصــل

[أصل الشر ، الشهوة والغفلة]

٣٧ - فالغفلة والشهوة أصل الشر . قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ [الكهف : ٢٨] والهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل ، وإلا فصاحب الهوى ، إذا علم قطعاً أن ذلك يضره ضرراً راجحاً : انصرفت نفسه عنه بالطبع ، فإن الله تعالى جعل فى النفس حباً لما ينفعها ، وبغضاً لما يضرها ، فلا تفعل ماتجزم بأنه يضرها ضرراً راجحاً ، بل متى فعلته كان لضعف العقل .

ولهذا يوصف بأنه عاقل ، وذو نهى وذو حجى .

ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان ، لا من مجرد النفس ، فإن الشيطان يزين لها السيئات ، ويأمرها بها ، ويذكر لها مافيها من المحاسن . التى هى منافع لا مضار . كما فعل إبليس بآدم وحواء . فقال : ﴿ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ . فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ﴾ [طه : ١٢٠ ، ١٢١] ﴿ وَقَالَ : مَانَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ ، أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠] .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٦] وقال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ [فاطر : ٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] .

وقوله : ﴿ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ هو بتوسيط تزيين الملائكة والأنبياء ، والمؤمنين للخير ، وتزيين شياطين الجن والإنس للشر . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ

لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ [الأنعام : ١٣٧] .

فأصل مايوقع الناس فى السيئات : الجهل وعدم العلم بكونها تضرهم ضرراً راجحاً ، أو ظن أنها تنفعهم نفعاً راجحاً . ولهذا قال الصحابة رضى الله عنهم : « كل من عصى الله فهو جاهل » وفسروا بذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ [النساء ١٧] كقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام ٥٤] . ولهذا يسمى حال فعل السيئات : الجاهلية فإنه يصاحبها حال من حال جاهلية .

قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد ﷺ عن هذه الآية ؟ ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ فقالوا : كل من عصى الله فهو جاهل . ومن تاب قبيل الموت : فقد تاب من قريب .

وعن قتادة قال : « أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على : أن كل من عصى ربه فى جهالة عمداً كان أو لم يكن ، وكل من عصى الله فهو جاهل » وكذلك قال التابعون ومن بعدهم .

قال مجاهد : من عمل ذنباً – من شيخ ، أو شاب – فهو بجهالة ، وقال : من عصى ربه فهو جاهل . حتى ينزع عن معصيته . وقال أيضاً : هو إعطاء الجهل العمد .

وقال مجاهد أيضاً : من عمل سوءًا خطأ ، أو إثما عمداً : فهو جاهل ، حتى ينزع منه . وراهن ابن أبى حاتم . ثم قال : روى عن قتادة ، وعمرو بن مرة ، والثورى ، ونحو ذلك خطأ ، أو عمداً .

وروى عن مجاهد والضحاك قالا : ليس من جهالته أن لا يعلم حلالا ولا حراماً ، ولكن جهالته : حين دخل فيه .

وقال عكرمة : الدنيا كلها جهالة .

وعن الحسن البصرى : أنه سئل عنها ؟ فقال : هم قوم لم يعلموا مالهم مما عليهم . قيل له : أرأيت لو كانوا قد علموا ؟ قال : فليخرجوا منها . فإنها جهالة .

٣٨ – قلت : ومما يبين ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] وكل من خشيه ، وأطاعه ، وترك معصيته : فهو عالم . كما قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً ؟ يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟ ﴾ [الزمر : ٩] .

وقوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ يقتضى أن كل من خشى الله فهو عالم .. فإنه لا يخشاه إلا عالم .

ويقتضى أيضاً : أن العالم من يخشى الله . كما قال السلف .

قال ابن مسعود : « كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار جهلا » .

ومثل هذا الحصر يكون من الطرفين ، حصر الأول فى الثانى . وهو مطرد . وحصر الثانى فى الأول نحو قوله : ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ [يس : ١١] ، وقوله : ﴿ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٥] ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَاخَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِم وَهُمْ لَايَسْتَكْبِرُونَ . تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة : ١٥ ، ١٦] .

ومن ذلك : أنه أثبت الخشية للعلماء ، ونفاها عن غيرهم وهذا كالاستثناء فإنه من النفى : إثبات عند جمهور العلماء . كقولنا « لا إله إلا الله » ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ [الأنبياء : ٢٨] ، وقوله : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ .

وقد ذهب طائفة إلى أن المستثنى مسكوت عنه ، لم يثبت له ماذكر ، ولم ينف عنه .

وهؤلاء يقولون ذلك فى صيغة الحصر بطريق الأولى ، فيقولون : نفى الخشية عن غير العلماء ، ولم يثبتها لهم .

والصواب : قول الجمهور : إن هذا كقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّى الفوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَابَطَنَ والإِثْمَ والبَغْىَ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، فإنه ينفى التحريم

عن غير هذه الأصناف ويثبتها لها . لكن أثبتها للجنس . أو لكل واحد ؛ كما يقال : إنما يحج المسلمون . ولا يحج إلا مسلم . وذلك أن المستثنى هل هو مقتض أو شرط ؟

ففى هذه الآية وأمثالها : هو مقتض ، فهو عام ، فإن العلم بما أنذرت به الرسل يوجب الخوف ، فإذا كان العلم يوجب الخشية الحاملة على فعل الحسنات ، وترك السيئات . وكل عاصٍ فهو جاهل ليس بتام العلم . يبين ماذكرنا من أن أصل السيئات الجهل ، وعدم العلم . وإذا كان كذلك . فعدم العلم ليس شيئاً موجوداً . بل هو مثل عد القدرة ، وعدم السمع والبصر ، وسائر الأعدام .

* * *

والعدم : لا فاعل له . وليس هو شيئاً . وإنما الشىء الموجود. والله تعالى خالق كل شىء . فلا يجوز أن يضاف العدم المحض إلى الله . لكن قد يقترن به ماهو موجود .

فإذا لم يكن عالماً بالله ، لا يدعوه إلى الحسنات ، وترك السيئات .

والنفس بطبعها متحولة . فإنها حية . والإرادة والحركة الإرادية من لوازم الحياة . ولهذا قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « أصدق الأسماء حارث وهمام » فكل آدمى حارث وهمام . أى عامل كاسب ، وهو همام . أى يهم ويريد . فهو متحرك بالإرادة .

وقد جاء فى الحديث : « مثل القلب : مثل ريشة ملقاة بأرض فلاة ، وللقلب أشد تقلباً من القِدر إذا استجمعت غلياناً » .

فلما كانت الإرادة والعمل من لوازم ذاتها : فإذا هداها الله : علّمها ماينفعها ومايضرها فأرادت ماينفعها ، وتركت مايضرها .

فصــل

والله سبحانه وتعالى قد تفضل على بنى آدم بأمرين : هما أصل السعادة .

[الفطرة]

٣٩ – أحدهما : أن كل مولود يولد على الفطرة ، كما فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه ، أو ينصِّرانه ، أو يمجِّسانه » كما تنتج البهيمة بهيمة عجماء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً : فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ﴾ [الروم : ٣٠] .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبى ﷺ قال : « يقول الله تعالى : خلقت عبادى حنفاء ، فاجتالهم الشيطان . وحرمت عليهم ماأحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطاناً » .

فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالإلهية ، محبة ، تعبده لاتشرك به شيئاً . ولكن يفسدها مايزين لها شياطين الإنس والجن بما يوحى بعضهم إلى بعض من الباطل . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ : إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ؟ ﴾ [الأعراف ١٧٢ ، ١٧٣] .

وتفسير هذه الآية مبسوط فى غير هذا الموضع .

[هداية الله]

٤٠ – الثانى : أن الله تعالى قد هدى الناس هداية عامة بما جعل فيهم بالفطرة من المعرفة وأسباب العلم ، وبما أنزل إليهم من الكتب ، وأرسل إليهم من الرسل . قال تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ – ٥] . وقال تعالى : ﴿ الرَّحْمٰنُ عَلَّمَ القُرْآنَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴾ [الرحمن : ١ – ٣] وقال تعالى :

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى . الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى . والَّذِى قَدَّر فَهَدَى ﴾ [الأعلى : ١ - ٣] . وقال تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : ١٠] .

ففى كل أحد مايقتضى معرفته بالحق ومحبته له . وقد هداه ربه إلى أنواع من العلم ، ويمكنه أن يتوصل بها إلى سعادة الأولى والآخرة ، وجعل فى فطرته محبة لذلك . لكن قد يعرض الإنسان بجاهليته وغفلته – عن طلب علم ماينفعه . وكونه لا يطلب ذلك ، ولا يريده : أمر عدمى ، ولا يضاف إلى الله تعالى . فلا يضاف إلى الله : لا عدم علمه بالحق ، ولا عدم إرادته للخير .

[طبيعة النفس]

٤١ –لكن النفس – كما تقدم – الإرادة والحركة من لوازمها . فإنها حية حياة طبيعية لكن سعادتها ونجاتها إنما تتحقق بأن تحيا الحياة النافعة الكاملة وكان مالها من الحياة الطبيعة موجباً لعذابها . فلا هى حية متنعمة بالحياة . ولا هى ميتة مستريحة من العذاب ، قال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى . سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى . وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى . الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى : ٩ - ١٣] فالجزاء من جنس العمل . لما كان فى الدنيا : ليس يحيا الحياة النافعة التى خلق لأجلها . بل كانت حياته من جنس حياة البهائم . ولم يكن ميتاً عديم الإحساس : كان فى الآخرة كذلك . فإن مقصود الحياة : هو حصول ماينفع به الحى ويستلذ به ، والحى لابد له من لذة أو ألم ، فإذا لم تحصل له اللذة ، لم يحصل له مقصود الحياة ، فإن الألم ليس مقصوداً .

كمن هو حى فى الدنيا ، وبه أمراض عظيمة لاتدعه يتنعم بشىء مما يتنعم به الأحياء ، فهذا يبقى طول حياته يختار الموت ، ولا يحصل له .

فلما كان من طبع النفس الملازم لها : وجود الإرادة والعمل ، إذ هو حارث همام ، فإن عرفت الحق وأرادته وأحبته وعبدته ، فذلك من تمام إنعام الله عليها ، وإلا فهى بطبعها لابد لها من مراد معبود غير الله ، ومرادات سيئة تضرها ، فهذا الشر قد تركب من كونها لم تعرف الله ولم تعبده ، وهذا عدم لا يضاف إلى فاعل ، ومن كونها

بطبعها لابد لها من مراد معبود ، فعبدت غيره ، وهذا هو الشر الذى تعذب عليه ، وهو من مقتضى طبعها مع عدم هداها .

* * *

[غلط القدرية فى « إرادة » الإنسان]

٤٢ - والقدرية يعترفون بهذا جميعه ، وبأن الله خلق الإنسان مريداً لكن يجعلون المخلوق كونه مريداً بالقوة والقبول ، أى قابلا لأن يرد هذا وهذا .

أما كونه مريداً لهذا المعين ، وهذا المعين : فهذا عندهم ليس مخلوقاً لله - وغلطوا فى ذلك غلطاً فاحشاً ، فإن الله خالق هذا كله .

وإرادة النفس لما يريده من الذنوب وفعلها : هو من جملة مخلوقات الله تعالى ، فإن الله خالق كل شىء ، وهو الذى ألهم النفس - التى سوَّاها - فجورها وتقواها .

وكان النبى ﷺ يقول فى دعائه : « اللهم آت نفسى تقواها ، وزكّها ، أنت خير من زكَّاها ، أنت وليها ومولاها » .

وهو سبحانه : جعل إبراهيم وآله أئمة يهدون بأمره ، وجعل فرعون وآله أئمة يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لاينصرون .

لكن هذا لايضاف مفرداً إلى الله تعالى ، لوجهين : من جهة علته الغائبة ، ومن جهة سببه وعلته الفاعلة .

أما الغائبة : فإن الله إنما خلقه لحكمة هى باعتبارها خير ، لاشر ، وإن كان شراً إضافياً . فإذا أضيف مفرداً : توهم المتوهم مذهب جهم : أن الله يخلق الشر المحض الذى لا خير فيه لأحد ؛ لا لحكمة ولا رحمة ، والأخبار والسنة والاعتبار تبطل هذا المذهب .

كما أنه إذا قيل : محمد وأمته يسفكون الدماء ، ويفسدون فى الأرض : كان هذا ذماً لهم ، وكان باطلا . وإذا قيل : يجاهدون فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا ، ويكون الدين كله لله ، ويقتلون من منعهم من ذلك : كان هذا مدحاً لهم ، وكان حقاً .

فإذا قيل : إن الرب تبارك وتعالى حكيم رحيم ، أحسن كل شيء خلقه ، وأتقن ماصنع ، هو أرحم الراحمين ؛ أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، والخير كله بيديه ، والشر ليس إليه ، بل لايفعل إلا خيراً ، وما خلقه من ألم لبعض الحيوانات أو من أعمالهم المذمومة : فله فيها حكمة عظيمة ، ونعمة جسيمة – كان هذا حقاً ، وهو مدح للرب وثناء عليه .

وأما إذا قيل : إنه يخلق الشر الذى لا خير فيه ولا منفعة لأحد ، ولا له فيها حكمة ولا رحمة . ويعذب الناس بلا ذنب . لم يكن هذا مدحاً للرب ، ولا ثناء عليه ؛ بل كان بالعكس .

ومن هؤلاء من يقول : إن الله تعالى أضر على خلقه من إبليس .

وبسط القول فى بيان فساد قول هؤلاء له موضع آخر .

وقد بيَّنا بعض مافى خلق جهم وإبليس من السيئات : من الحكمة والرحمة . وما لم نعلم أعظم مما علمناه .

فتبارك الله أحسن الخالقين ، وأرحم الراحمين ، وخير الغافرين ، ومالك يوم الدين . الأحد الصمد . الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، الذى لايحصى العباد ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، الذى له الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه يرجعون . الذى يستحق الحمد والحب والرضا لذاته . ولإحسانه إلى عباده ، سبحانه وتعالى ، يستحق أن يحمد لما له فى نفسه من المحامد والإحسان إلى عباده ، هذا حمد شكر ، وذاك حمد مطلق .

* * *

[كل ماخلقه الله فهو نعمة للمؤمنين]

٤٣ –وقد ذكرنا – فى غير هذا الموضع – ماقيل : من أن كل ماخلقه الله فهو نعمة على عباده المؤمنين . يستحق أن يحمدوه ويشكروه عليه ، وهو من الآية . ولهذا قال فى آخر سورة النجم : ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمارَىٰ ؟ ﴾ [النجم ٥٥] وفى سورة الرحمن يذكر : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن : ٢٦] ونحو ذلك . ثم يقول عقب ذلك : ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ ﴾ .

وقال آخرون : منهم الزجاج ، وأبو الفرج ابن الجوزى : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أى من هذه الأشياء المذكورة ، لأنها كلها ينعم بها عليكم فى دلالتها إياكم على وحدانيته . وفى رزقه إياكم ما به قوامكم .

وهذا قالوه فى سورة الرحمن .

وقالوا فى قوله : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ؟ ﴾ فبأى نعم ربك التى تدل على وحدانيته تتشكك ؟ وقيل : تشك وتجادل ؟ قال ابن عباس : تكذب ؟ .

قلت : قد ضمن « تتمارى » معنى تكذب . ولهذا عداه بالتاء . فإن التمارى تفاعل من المراء . يقال : تمارينا فى الهلال ، والمراء فى القرآن كفر . وهو يكون تكذيب وتشكيك .

وقد يقال : لما كان الخطاب لهم . قال « تتمارى » أى يتمارون ، ولم يقل : تميرك . فإن التفاعل يكون بين اثنين تماريا . قالوا : والخطاب للإنسان ، قيل : للوليد ابن المغيرة . فإنه قال : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى . أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [النجم : ٣٦ - ٣٨] ثم التفت فقال : « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمارَى ؟ » تكذبان . كما قال : ﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالفَخَّارِ . وَخَلَقَ الجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ . فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ ﴾ [الرحمن : ١٤ - ١٦] .

ففى كل ماخلقه الله إحسان إلى عباده ، يحمد عليه حمد شكر . وله فيه حكمة تعود إليه ، يستحق لأجلها أن يحمد عليه حمداً يستحقه لذاته .

فجميع المخلوقات : فيها إنعام على العباد . كالثقلين المخاطبين بقوله « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ » ومن جهة أنها آيات للرب ، يحصل بها هدايتهم وإيمانهم الذى يسعدون به فى الدنيا والآخرة . فيدلهم عليه وعلى وحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته .

والآيات التى بعث بها الأنبياء وأيدهم بها ونصرهم . وإهلاك عدوهم - كما ذكره فى سورة النجم : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى . وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى . وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى . وَالمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾ [النجم :

٥٠ - ٥٤] . يدلهم على صدق الأنبياء فيما أخبروا به من الأمور والنهى ، والوعد والوعيد ، ما بشروا به وأنذروا به .

ولهذا قال عقيب ذلك : ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى ﴾ قيل : هو محمد . وقيل : هو القرآن . فإن الله سمى كلا منهما بشيراً ونذيراً . فقال فى رسول الله : ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٨] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [الفتح : ٨] وقال تعالى فى القرآن : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [فصلت : ٣ ، ٤] وهما متلازمان .

وكل من هذين المعنيين . مراد . يقال : هذا نذير أنذر بما أنذرت به الرسل والكتب الأولى .

وقوله : « من النذر » أى من جنسها . أى رسول من الرسل المرسلين .

ففى المخلوقات : نعم من جهة حصول الهدى والإيمان ، والاعتبار والموعظة بها .

وهذه أفضل النعم .

[نعمة الإيمان : أفضل النعم]

٤٤ - فأفضل النعم : نعمة الإيمان . وكل مخلوق من المخلوقات : فهو الآيات التى يحصل بها مايحصل من هذه النعمة . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] وقال تعالى : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ [قٓ : ٨] .

وما يصيب الإنسان ، إن كان يسرّه : فهو نعمة بينة . وإن كان يسوءه : فهو نعمة من جهة أنه يكفّر خطاياه . ويثاب بالصبر عليه ، ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

وقد قال فى الحديث : « والله لايقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له . إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له . وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » . وإذا كان هذا وهذا : فكلاهما من نعم الله عليه .

[الصبر على السراء والضراء والشكر عليهما]

٤٥ – وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر .

أما نعمة الضراء : فاحتياجها إلى الصبر ظاهر . وأما نعمة السراء : فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها ، فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء . كما قال بعض السلف : ابتلينا بالضراء فصبرنا . وابتلينا بالسراء فلم نصبر .

وفى الحديث : « أعوذ بك من فتنة الفقر . وشر فتنة الغنى » .

والفقر يصلح عليه خلق كثير . والغنى : لا يصلح عليه إلا أقل منهم .

ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين ، لأن فتنة الفقر أهون وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر ؛ لكن لما كان فى السراء : اللذة . وفى الضراء : الألم . اشتهر ذلك الشكر فى السراء ، والصبر فى الضراء . قال تعالى:﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ : ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ . إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود : ٩ – ١١] ولأن صاحب السراء : أحوج إلى الشكر ، وصاحب الضراء : أحوج إلى الصبر فإن صبر هذا وشكر هذا : واجب . إذا تركه استحق العقاب .

وأما صبر صاحب السراء : فقد يكون مستحباً ، إذا كان عن فضول الشهوات ، وقد يكون واجباً ، ولكن لإتيانه بالشكر – الذى هو حسنات – يغفر له ما يغفر من سيئاته .

وكذلك صاحب الضراء : لايكون الشكر فى حقه مستحباً إذا كان شكراً يصير به من السابقين المقربين . وقد يكون تقصيره فى الشكر : مما يغفر له ، لما يأتى به من الصبر ؛ فإن اجتماع الشكر والصبر جميعاً : يكون مع تألم النفس وتلذذها ، يصبر على الألم ، ويشكر على النعم . وهذا حال يعسر على كثير من الناس . وبسط هذا له موضع آخر .

* * *

والمقصود هنا : أن الله تعالى متعهم بهذا كله ، وإن كان لا يظهر الإنعام به فى الابتداء لأكثر الناس . فإن الله يعلم وأنتم لا تعلمون . فكل مايفعله الله فهو نعمة منه .

[ذنوب الإنسان]

٤٦ – وأما ذنوب الإنسان : فهى من نفسه . ومع هذا فهى – مع حسن العاقبة – نعمة وهى نعمة على غيره بما يحصل له بها من الاعتبار والهدى والإيمان . ولهذا كان من أحسن الدعاء قوله : « اللهم لاتجعلنى عبرة لغيرى ، ولا تجعل أحداً أسعد بما علمتنى منى » .

وفى دعاء القرآن : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس : ٨٥] ﴿ رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الممتحنة : ٥] كما فيه ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ [الفرقان : ٧٤] أى فاجعلنا أئمة لمن يقتدى بنا ويأتم . ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى .

و « الآلاء » فى اللغة : هى النعم ، وهى تتضمن القدرة .

قال ابن قتيبة : لما عدّد الله فى هذه السورة – سورة الرحمن – نعماءه ، وذكّر عباده آلاءه ونبههم على قدرته . وجعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين نعمتين ، ليفهم النعم ويقررهم بها .

وقد روى الحاكم فى صحيحه والترمذى عن جابر عن النبى ﷺ ، قال : « قرأ علينا رسول الله ﷺ الرحمٰن حتى ختمها . ثم قال : مالى أراكم سكوتا ؟ الجن كان أحسن منكم رداً . ماقرأت عليهم هذه الآية من مرة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إلا قالوا : ولا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » .

[القرآن كله تذكير بآلاء الله]

٤٧ – والله تعالى يذكر فى القرآن بآياته الدالة على قدرته وربوبيته ، ويذكر بآياته التى فيها نعمه وإحسانه إلى عباده ، ويذكر بآياته المبينة لحكمته تعالى ، وهى كلها متلازمة .

فكل ماخلق : فهو نعمة ، ودليل على قدرته وعلى حكمته .

لكن نعمة الرزق ، والانتفاع بالمآكل والمشارب والمساكن والملابس : ظاهرة لكل أحد ، فلهذا يستدل بها ، كما فى سورة النحل : وتسمى سورة النعم . كما قاله قتادة وغيره .

[الفرق بين الحمد والشكر]

٤٨ – وعلى هذا : فكثير من الناس يقول :

الحمد أعم من الشكر من جهة أسبابه ، فإنه يكون على نعمة وعلى غير نعمة . والشكر أعم من جهة أنواعها . فإنه يكون بالقلب واللسان واليد .

فإذا كان كل مخلوق فيه نعمة : لم يكن الحمد إلا نعمة ، والحمد لله على كل حال ، لأنه مامن حال يقضيها إلا وهى نعمة على عباده .

لكن هذا فهم من عرف مافى المخلوقات من النعم . والجهمية والجبرية : بمعزل عن هذا .

وكذلك كل مايخلقه : ففيه له حكمة . فهو محمود عليه باعتبار تلك الحكمة . والجهمية أيضاً بمعزل عن هذا .

وكذلك القدرية الذين يقولون : لا تعود الحكمة إليه . بل ماثمَّ إلا نفع الخلق ، فما عندهم إلا شكر ، كما ليس عند الجهمية إلا قدرة .

والقدرة المجردة عن نعمة وحكمة : لا يظهر فيها وصف حمد ، كالقادر الذى يفعل مالا ينتفع به ولا ينفع به أحداً ، فهذا لا يحمد .

فحقيقة قول الجهمية أتباع جهم : أنه لا يستحق الحمد . فله عندهم ملك بلا حمد ، مع تقصيرهم فى معرفة ملكه .

كما أن المعتزلة له عندهم نوع من الحمد بلا ملك تام ، إذ كان عندهم يشاء مالا يكون ، ويكون مالا يشاء ، وتحدث حوادث بلا قدرته .

وعلى مذهب السلف : له الملك وله الحمد تامَّين ، وهو محمود على حكمته ، كما هو محمود على قدرته ورحمته .

وقد قال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ : لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] فله الوحدانية فى إِلَهِيَّةِ ، وله العدل ، وله العزة والحكمة .

وهذه الأربعة إنما يثبتها السلف وأتباعهم . فمن قصر عن معرفة السنة ، فقد نقص الرب بعض حقه .

والجهمى الجبرى لايثبت عدلا ولا حكمة ، ولا توحيد إِلَهِيَّةِ . بل توحيد ربوبيته . والمعتزلى أيضاً لايثبت فى الحقيقة توحيد إِلَهِيَّةِ ولا عدلا فى الحسنات والسيئات ، ولا عزة ولا حكمة فى الحقيقة ، وإن قال : إنه يثبت الحكمة بما معناها يعود إلى غيره . وتلك لا تصلح أن تكون حكمة من فعل لا لأمر يرجع إليه ، بل لغيره هو عند العقلاء قاطبة بها : ليس بحكيم ، بل سفيه .

وإذا كان الحمد لايقع إلا على نعمة ، فقد ثبت : أنه رأس الشكر فهو أول الشكر .

والحمد - وإن كان على نعمته وعلى حكمته - فالشكر بالأعمال : هو على نعمته وهو على عبادة له لإلهيته التى تتضمن حكمته . فقد صار مجموع الأمور داخلا فى الشكر .

ولهذا عظم القرآن أمر الشكر . ولم يعظم أمر الحمد مجرداً ، إذا كان نوعاً من الشكر .

وشرع الحمد - الذى هو الشكر المقول - أمام كل خطاب مع التوحيد .

ففى الفاتحة : الشكر والتوحيد ، والخطب الشرعية لابد فيها من الشكر والتوحيد ، والباقيات الصالحات نوعان . فسبحان الله وبحمده : فيها الشكر والتنزيه والتعظيم . ولا إله إلا الله والله أكبر : فيها التوحيد والتكبير .

وقد قال تعالى : ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [غافر : ٦٥] .

* * *

[قضاء السيئات]

٤٩ – وهل الحمد على كل مايحمد به الممدوح . وإن لم يكن باختياره ، أو لا يكون الحمد على الأمور الاختيارية . كما قيل فى الذم ؟ فيه نظر ليس هذا موضعه .

وفى الصحيح : « أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : ربنا ولك الحمد . ملء السماء ، وملء الأرض ، وملء ماشئت من شىء بعد ، أهل الثناء والمجد . أحق ماقال العبد – وكلنا لك عبد – لا مانع لما أعطيت . ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » هذا لفظ الحديث « أحق » أفعل التفضيل .

وقد غلط فيه طائفة من المصنفين فقالوا : « حق ماقال العبد » .

وهذا ليس لفظ الرسول . وليس هو بقول سديد . فإن العبد يقول الحق والباطل . بل الحق مايقوله الرب . كما قال تعالى : ﴿ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾ [ص : ٨٤] .

ولكن لفظة « أحق ماقال العبد » خبر مبتدأ محذوف . أى الحمد أحق ماقال العبد . أو هذا – وهو الحمد – أحق ماقال العبد .

ففيه بيان : أن الحمد لله أحق ماقاله العباد . ولهذا أوجب قوله فى كل صلاة ، وأن تفتح به الفاتحة ، وأوجب قوله فى كل خطبة ، وفى كل أمر ذى بال .

والحمد ضد الذم . والحمد يكون على محاسن المحمود ، مع المحبة له ، كما أن الذم يكون على مساويه ، مع البغض له .

فإذا قيل : إنه سبحانه يفعل الخير والحسنات ، وهو حكيم رحيم بعباده ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها : أوجب ذلك أن يحبه عباده ويحمدوه .

وأما إذا قيل : بل يخلق ماهو شر محض ، ولا نفع فيه ولا رحمة ، ولا حكمة لأحد . وإنما يتصف بإرادة ترجح مثلا على مثل . لا فرق عنده بين أن يرحم أو يعذب : وليست نفسه ولا إرادته مرجحة للإحسان إلى الخلق ، تعذيبهم وتنعيمهم سواء عنده : وهو – مع هذا – يخلق ما يخلق لمجرد العذاب والشر ، ويفعل مايفعل

لا لحكمة - ونحو ذلك ، مما يقوله الجهمية - لم يكن هذا موجباً لأن يحبه العباد ويحمدوه . بل هو موجب للعكس .

ولهذا فإن كثيراً من هؤلاء ينطقون بالذم والشتم والطعن ، ويذكرون ذلك نظماً ونثراً.

وكثيراً من شيوخ هؤلاء وعلمائهم من يذكر فى كلامه مايقتضى هذا . ومن لم يقله لسانه فقلبه ممتلىء به ، لكن يرى أن ليس فى ذكره منفعة ، أو يخاف من عموم المسلمين .

وفى شعره طائفة من الشيوخ ذكر نحو هذا .

وهؤلاء يقيمون حجج إبليس وأتباعه على الله . ويجعلون الرب ظالماً لهم .

وهو خلاف ماوصف الله به نفسه ، فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ [الزخرف : ٧٦] وقوله : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ [هود : ١٠١] وقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : ٤٦] .

كيف يكون ظالماً ؟ وهم فيما بينهم لو أساء بعضهم إلى بعض ، أو قصر فى حقه لكان يؤاخذه ، ويعاقبه وينتقم منه . ويكون ذلك عدلاً إذا لم يعتد عليه .

ولو قال : إن الذى فعلته قدر علىَّ فلا ذنب لى فيه : لم يكن هذا عذراً له عندهم باتفاق العقلاء .

فإذا كان العقلاء متفقين على أن حق المخلوق لايجوز إسقاطه احتجاجاً بالقدرة ، فكيف يجوز إسقاط حق الخالق احتجاجاً بالقدر ؟

وهو سبحانه الحكم العدل ، الذى لايظلم مثقال ذرة : وإن تك حسنة يضاعفها . ويؤت من لدنه أجراً عظيما . وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

فقوله : « أحق ماقال العبد » يقتضى : أن حمد الله ماقاله العبد ، فله الحمد على كل حال . لأنه لايفعل إلا الخير والإحسان ، الذى يستحق الحمد عليه ، سبحانه وتعالى وإن كان العباد لايعلمون .

* * *

[حكمة خلق الإنسان]

٥٠ – وهو سبحانه خلق الإنسان ، وخلق نفسه متحركة بالطبع حركة لابد فيها من الشر لحكمة بالغة ، ورحمة سابغة .

فإذا قيل : فلم يخلقها على غير هذا الوجه ؟

قيل : كان يقول ذلك خلقاً غير الإنسان وكانت الحكمة التى خلقها بخلق الإنسان لاتحصل . وهذا سؤال الملائكة حيث قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ؟ ﴾ [البقرة : ٣٠] مالم تعلمه الملائكة ، فكيف يعلمه آحاد الناس .

وفى نفس الإنسان خلقت كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً . إِذَا مَسَّه الشَّرُّ جَزُوعاً . وإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً ﴾ [المعارج : ١٩ – ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء : ٣٧] .

فقد خلقت خلقة تستلزم وجود ماوجد منها لحكمة عظيمة ، ورحمة عميمة ، فكان ذلك خيراً ورحمة ، وإن كان فيه شر إضافى ، كما تقدم . فهذا من جهة الغاية مع أنه لايضاف الشر إلى الله .

وأما الوجه الثانى من جهة السبب : فإن هذا الشر إنما وجد لعدم العلم والإرادة التى تصلح النفس ، فإنها خلقت بفطرتها تقتضى معرفة الله ومحبته ، وقد هديت إلى علوم وأعمال تعينها على ذلك . وهذا كله من فضل الله وإحسانه لكن النفس المذنبة لما لم يحصل لها من يكملها ، بل حصل لها من زين لها السيئات – من شياطين الإنس والجن – مالت إلى ذلك ، وفعلت السيئات . فكان فعلها للسيئات مركباً من عدم ماينفع وهو الأفضل . ووجود هؤلاء الذين خيروها ، والعدم لايضاف إلى الله .

وهؤلاء : القول فيهم كالقول فيها : خلقهم لحكمة .

فلما كان عدم ماتعمل به وتصلح : هو أحد السببين . وكان الشر المحض الذى لاخير فيه : هو العدم المحض ، والعدم لايضاف إلى الله . فإنه ليس شيئاً : والله خالق كل شيء . كانت السيئات منها باعتبار ذاتها فى نفسها مستلزمة للحركة

الإرادية التى تحصل منها عدم مع مايصلحها تلك السيئات .

والعبد إذا اعترف وأقر بأن الله خالق أفعاله كلها فهو على وجهين :

إن اعترف به إقراراً بخلق الله كل شىء ، بقدرته ونفوذ مشيئته ، وإقراراً بكلماته التامات التى لايجاوزهن برٌّ ولا فاجر ، واعترافاً بفقره وحاجته إلى الله وأنه لم يهده فهو ضال ، وإن لم يتب عليه فهو مُصِرٌّ ، وإن لم يغفر له فهو هالك : خضع لعزته وحكمته . فهذا حال المؤمنين الذين يرحمهم الله ويهديهم ويوفقهم لطاعته .

وإن قال ذلك احتجاجاً على الرب ، ودفعاً للأمر والنهى عنه ، وإقامة لعذر نفسه ، فهذا ذنب أعظم من الأول ، وهذا من أتباع الشيطان . ولا يزيده ذلك إلا شراً . وقد ذكرنا أن الرب – سبحانه – محمود لنفسه ولإحسانه إلى خلقه ؛ ولذلك هو يستحق المحبة لنفسه ولإحسانه إلى عباده . ويستحق أن يرضى العبد بقضائه ؛ لأنه حكمه عدل ؛ لايفعل إلا خيراً وعدلا . ولأنه لايقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له : « إن أصابته سراء شكر ؛ فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » .

فالمؤمن يرضى بقضائه لما يستحقه الرب لنفسه – من الحمد والثناء – ولأنه محسن إلى المؤمن .

[قضاء السيئات]

٥١ – وما تسأله طائفة من الناس ، وهو أنه ﷺ قال : « لايقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له » وقد قضى عليه بالسيئات الموجبة للعقاب ، فكيف يكون ذلك خيراً ؟ .

وعنه جوابان :

أحدهما : أن أعمال العباد لم تدخل فى الحديث ؛ إنما دخل فيه مايصيب الإنسان من النعم والمصائب ، كما فى قوله : ﴿ مَاأَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَاأَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] . ولهذا قال : « إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ؛ فكان خيراً له » فجعل القضاء :

مايصيبه من سراء وضراء . هذا ظاهر لفظ الحديث ، فلا إشكال عليه .

الوجه الثانى : أنه إذا قدر أن الأعمال دخلت فى هذا ، فقد قال النبى ﷺ : « من سرَّته حسنته ، وساءته سيئته فهو مؤمن » .

فإذا قضى له بأن يحسن ، فهذا مما يسره ، فيشكر الله عليه .

وإذا قضى عليه بسيئة : فهى إنما تكون سيئة يستحق العقوبة عليها ، إذا لم يتب منها ، فإن تاب أبدلت بحسنة ، فيشكر الله عليها ، وإن لم يتب ابتلى بمصائب تكفرها ، فصبر عليها ، فيكون ذلك خيرا له : والرسول ﷺ قال : « لايقضى الله للمؤمن » والمؤمن هو الذى لايصر على ذنب . بل يتوب منه ؛ فيكون حسنة كما قد جاء فى عدة آيات : إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة بعمله . ولا يزال يتوب منه حتى يدخل بتوبته منه الجنة .

والذنب يوجب ذل العبد وخضوعه ، ودعاء الله واستغفاره إياه ، وشهوده بفقره وحاجته إليه ، وأنه لايغفر الذنوب إلا هو .

فيحصل للمؤمن – بسبب الذنب – من الحسنات مالم يكن يحصل بدون ذلك ، فيكون هذا القضاء خيراً له .

فهو فى ذنوبه بين أمرين : إما أن يتوب ، فيتوب الله عليه ، فيكون من التوابين الذين يحبهم الله .

وإما أن يكفر عنه بمصائب ، تصيبه ضراء فيصبر عليها . فيكفر عنه السيئات بتلك المصائب ، وبالصبر عليها ترتفع درجاته .

وقد جاء فى بعض الأحاديث يقول الله تعالى : « أهل ذكرى أهل مجالستى ، وأهل شكرى أهل زيارتى ، وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل معصيتى لا أُويسهم من رحمتى ، إن تابوا فأنا حبيبهم » أى : محبهم ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين « وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأكفر عنهم المعائب » .

[مافى قوله تعالى « من نفسك » من الفوائد]

٥٢ – وفى قوله تعالى « من نفسك » من الفوائد : أن العبد لايركن إلى نفسه ، ولايسكن إليها ، فإن الشر لايجىء إلا منها ، ولا يشتغل بملام الناس ولاذمهم إذا أساءوا إليه ؛ فإن ذلك من السيئات التى أصابته ، وهى إنما أصابته بذنوبه ؛ فيرجع إلى الذنوب فيستغفر منها ، ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، ويسأل الله أن يعينه على طاعته ، فبذلك يحصل له كل خير ، ويندفع عنه كل شر .

ولهذا كان أنفع الدعاء ، وأعظمه وأحكمه : دعاء الفاتحة:﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ، غَيرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ فإنه إذا هداه هذا الصراط : أعانه على طاعته وترك معصيته ، فلم يصبه شر ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

لكن الذنوب هى من لوازم نفس الإنسان ، وهو محتاج إلى الهدى فى كل لحظة : وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب .

ليس كما يقوله طائفة من المفسرين : إنه قد هداه . فلماذا يسأل الهدى ؟ وأن المراد بسؤال الهدى : الثبات ، أو مزيد الهداية .

بل العبد محتاج إلى أن يعلمه ربه مايفعله من تفاصيل أحواله ، وإلى مايتولد من تفاصيل الأمور فى كل يوم ، وإلى أن يلهم أن يعمل ذلك .

فإنه لايكفى مجرد علمه ، إن لم يجعله الله مريدا للعمل بعلمه ، وإلا كان العلم حجة عليه ، ولم يكن مهتدياً ، والعبد محتاج إلى أن يجعله الله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة .

فإنه لايكون مهتدياً إلى الصراط المستقيم – صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين – إلا بهذه العلوم والإرادات والقدرة على ذلك .

ويدخل فى ذلك من أنواع الحاجات مالا يمكن إحصاؤه .

ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء فى كل صلاة ، لفرط حاجتهم إليه .

فليسوا إلى شىء أحوج منهم إلى هذا الدعاء .

وإنما يعرف بعض قدر هذا الدعاء من اعتبر أحوال نفسه ونفوس الإنس والجن ، والمأمورين بهذا الدعاء . ورأى مافى النفوس من الجهل والظلم الذى يقتضى شقاءها فى الدنيا والآخرة ، فيعلم أن الله – بفضله ورحمته – جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير ، المانعة من الشر .

[العبرة فى قصص الأنبياء]

٥٣ – ومما يبين ذلك : أن الله تعالى لم يقص علينا فى القرآن قصة أحد إلا لنعتبر بها ، لما فى الاعتبار بها من حاجتنا إليه ومصلحتنا .

وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثانى بالأول ، وكانا مشتركين فى المقتضى للحكم ، فلولا أن فى نفوس الناس من جنس ماكان فى نفوس المكذبين للرسل – فرعون ومن قبله – لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لانشبهه قط ، ولكن الأمر كما قال تعالى : ﴿ مَايُقَالُ لَكَ إِلَّا مَاقَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [فصلت : ٤٣] وكما قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ مَاأَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا : سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات : ٥٢] وقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة : ١١٨] وقال تعالى : ﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ [التوبة : ٣٠] .

[إنها السنن]

٥٤ – ولهذا قال النبى ﷺ : « لتسلكن سنن من كان قبلكم حذو القُذَّة بالقُذَّة ، حتى لو دخلوا جحر ضَبٍّ لدخلتموه . قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ! » .

وقال : « لتأخذن أمتى مأخذ الأمم قبلها : شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع . قيل : يارسول الله ، فارس الروم ؟ قال : فمن ؟ » وكلا الحديثين فى الصحيحين .

ولما كان فى غزوة حنين كان للمشركين شجرة – يقال لها : ذات أنواط ، يعلقون عليها أسلحتهم ، وينوطونها بها ، ويستظلون بها متبركين . فقال بعض الناس : « يارسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال : الله أكبر ! قلتم كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . إنها السنن . لتركبنَّ سنن من كان قبلكم » .

وقد بيَّن القرآن : أن السيئات من النفس ، وإن كانت بقدر الله .

[أعظم السيئات]

٥٥ – فأعظم السيئات : جحود الخالق ، والشرك به ، وطلب النفس أن

تكون شريكة ونداً له ، أو أن تكون إلٰها من دونه . وكلا هذين وقع ، فإن فرعون طلب أن يكون إلهاً معبوداً دون الله تعالى . وقال : ﴿ مَاعَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص : ٣٨] و ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ [النازعات : ٢٤] وقال لموسى : ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٩] و ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ [الزخرف : ٥٤] .

وإبليس يطلب أن يعبد ويطاع من دون الله ، فيريد : أن يعبد ويطاع هو ، ولا يعبد الله ولا يطاع .

وهذا الذى فى فرعون وإبليس هو غاية الظلم والجهل .

وفى نفوس سائر الإنس والجن : شعبة من هذا وهذا ، إن لم يعن الله العبد ويهديه ، وإلا وقع فى بعض ماوقع فيه إبليس وفرعون ، بحسب الإمكان .

قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وفيها مافى نفس فرعون ، غير أن فرعون قدر فأظهر ، وغيره عجز فأضمر .

وذلك : أن الإنسان إذا اعتبر ، وتعرف نفسه والناس ، وسمع أخبارهم : رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب قدرته .

[حب الرياسة والعلو]

٥٦ – فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة ، بحسب إمكانها ، فتجد أحدهم. يوالى من يوافقه على هواه ، ويعادى من يخالفه فى هواه ، وإنما معبوده : مايهواه ويريده قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونَ عَلَيْهِ وَكِيلًا ؟ ﴾ [الفرقان : ٤٣] والناس عنده فى هذا الباب . كما هم عند ملوك الكفار من المشركين من الترك وغيرهم . يقولون « ياراباعى » أى صديق وعدو . فمن وافق هواهم : كان ولياً ، وإن كان كافراً مشركا . ومن لم يوافق هواهم : كان عدواً ، وإن كان من أولياء الله المتقين . وهذه حال فرعون .

والواحد من هؤلاء : يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه ، لكنه لايتمكن مما تمكن منه فرعون : من دعوى الإلٰهية ، وجحود الصانع .

وهؤلاء – وإن كانوا يقرون بالصانع – لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته وطاعته المتضمنة ترك طاعتهم : فقد يعادونه ، كما عادى فرعون موسى .

وكثير من الناس ممن عنده بعض عقل وإيمان ، لا يطلب هذا الحد ، بل يطلب لنفسه ماهو عنده فإن كان مطاعاً مسلماً : طلب أن يطاع فى أغراضه ، وإن كان فيها ماهو ذنب ومعصية لله ، ويكون من أطاعه فى هواه : أحب إليه وأعز عنده ممن أطاع الله وخالف هواه . وهذه شعبة من حال فرعون ، وسائر المكذبين للرسل .

وإن كان عالماً – أو شيخاً – أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره ، حتى لو كانا يقرآن كتاباً واحداً كالقرآن ، أو يعبدان عبادة واحدة متماثلان فيها ، كالصلوات الخمس ، فإنه يحب من يعظمه بقبول قوله ، والاقتداء به : أكثر من غيره . وربما أبغض نظيره وأتباعه حسداً وبغياً ، كما فعلت اليهود لما بعث الله محمداً ﷺ يدعو إلى مثل مادعا إليه موسى . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا : نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ ﴾ [البقرة : ٩١] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ ﴾ [البينة : ٤] وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ١٤] .

[عمل بنى إسرائيل كعمل فرعون]

٥٧ – ولهذا أخبر الله تعالى عنهم بنظير ماأخبر به فرعون . وسلط عليهم من انتقم به منهم ، فقال تعالى عن فرعون : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُم يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُم ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] وقال تعالى عنهم : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ : لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ [الإسراء : ٤] ولهذا قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَاداً ﴾ [القصص : ٨٣] .

والله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لعبادته ، ليذكروه ، ويشكروه . ويعبدوه . وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ليعبدوا الله وحده ، وليكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هى العليا ، كما أرسل كل رسول بمثل ذلك . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا

مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] وقال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا : أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ؟ ﴾ [الزخرف : ٤٥] .

وقد أمر الله الرسل كلهم بهذا ، وأن لا يتفرقوا فيه . فقال : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٩٢] وقال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً ؛ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ . فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥١ - ٥٣] .

قال قتادة : أى دينكم دين واحد ، وربكم رب واحد ، والشريعة مختلفة . وكذلك قال الضحاك عن ابن عباس « إن هذه أمتكم أمة واحدة » أى دينكم دين واحد . قال ابن أبى حاتم : وروى عن سعيد بن جبير ، وقتادة وعبد الرحمن بن زيد نحو ذلك . وقال الحسن : بيّن لهم مايتقون وما يأتون . ثم قال : إن هذه سنتكم سنة واحدة .

وهكذا قال جمهور المفسرين .

[معنى الأمة]

٥٨ - و « الأمة » الملة والطريقة ، كما قال تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ - مُقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٢ ، ٢٣] كما يسمى « الطريق » إماماً . لأن السالك فيه يأتم به ، فكذلك السالك يؤمه ويقصده .

و « الأمة » أيضاً معلم الخير ، الذى يأتم به الناس ، كما أن « الإمام » هو الذى يأتم به الناس ، وإبراهيم عليه السلام جعله الله إماماً ، وأخبر أنه : ﴿ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل : ١٢٠] .

وأمر الله الرسل أن تكون ملتهم ودينهم واحداً ، لا يتفرقون فيه ، كما فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد » وقد قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ

إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] ولهذا كان جميع رسل الله وأنبيائه يصدق بعضهم بعضا لا يختلفون ، مع تنوع شرائعهم .

[أتباع الرسل المخلصون]

٥٩ – فمن كان من المطاعين – من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك – متبعاً للرسل . أمر بما أمروا به ، ودعا إلى مادعوا إليه ، وأحبَّ من دعا إلى مثل ما دعا إليه ، فإن الله يحب ذلك ؛ فيحب مايحبه الله تعالى ، وهذا قصده فى نفس الأمر . أن تكون العبادة لله تعالى وحده ، وأن يكون الدين كله لله .

وأما من كان يكره أن يكون له نظير يدعو إلى ذلك : فهذا يطلب أن يكون هو المطاع المعبود ، فله نصيب من حال فرعون وأشباهه .

فمن طلب أن يطاع دون الله : فهذا حال فرعون ، ومن طلب أن يطاع مع الله : فهذا يريد من الناس أن يتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والله سبحانه وتعالى أمر : أن لا يعبد إلا إياه ، وأن لايكون الدين إلا له ، وأن تكون الموالاة فيه ، والمعاداة فيه ، وأن لايتوكل إلا عليه ، ولا يستعان إلا به .

فالمؤمن المتبع للرسل : يأمر الناس بما أمرتهم به الرسل ، ليكون الدين كله لله لا له ، وإذا أمر أحد غيره بمثل ذلك : أحبه وأعانه ، وسر بوجود مطلوبه .

وإذا أحسن إلى الناس ، فإنما يحسن إليهم : ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ويعلم أن الله قد منَّ عليه بأن جعله محسناً ، ولم يجعله مسيئاً ، فيرى أن عمله لله ، وأنه بالله .

وهذا مذكور فى فاتحة الكتاب ، التى ذكرنا : أن جميع الخلق محتاجون إليها أعظم من حاجتهم إلى أى شىء .

ولهذا فرضت عليهم قراءتها فى كل صلاة دون غيرها من السور ، ولم ينزل فى التوراة ، ولا فى الإنجيل ، ولا فى الزبور ، ولا فى القرآن مثلها ، فإن فيها : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

[المؤمن عمله لله وبالله]

٦٠ – فالمؤمن يرى أن عمله لله : لأنه إياه يعبد ، وأنه بالله لأنه إياه يستعين . فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاء ولا شكوراً ، لأنه إنما عمل له ماعمل لله ، كما قال الأبرار : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾ [الإنسان : ٩] ولا يمنّ عليه بذلك ولا يؤذيه ، فإنه قد علم : أن الله هو المانّ عليه ، إذ استعمله فى الإحسان ، وأن المنة لله عليه ، وعلى ذلك الشخص فعليه هو : أن يشكر الله . إذ يسره لليسرى ، وعلى ذلك : أن يشكر الله ، إذ يسر له من يقدم له ماينفعه من رزق ، أو علم أو نصر ، أو غير ذلك .

ومن الناس : من يحسن إلى غيره ليمنّ عليه ، أو يرد الإحسان له بطاعته إليه وتعظيمه ، أو نفع آخر . وقد يمنّ عليه ، فيقول : أنا فعلت بك كذا . فهذا لم يعبد الله ولم يستعنه . ولا عمل لله ، ولا عمل بالله ، فهو المرائى .

وقد أبطل الله صدقة المنان ، وصدقة المرائى . قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالمَنِّ وَالأَذَى ، كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ، وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً ، لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ، وَاللهُ لَايَهْدِى القَوْمَ الكَافِرِينَ . وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ : كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ ، فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٤ ، ٢٦٥] .

قال قتادة : « تثبيتاً من أنفسهم » احتساباً من أنفسهم ، وقال الشعبى : يقيناً وتصديقاً من أنفسهم ، وكذلك قال الكلبى ، قيل : يخرجون الصدقة طيبة بها أنفسهم . وعلى يقين الثواب ، وتصديق بوعد الله ، يعلمون : أن ما أخرجوه خير لهم مما تركوه .

قلت : إذا كان المعطى محتسباً للأجر عند الله مصدقاً بوعد الله له : طلب من الله ، لا من الذى أعطاه ، فلا يمنّ عليه . كما لو قال رجل لآخر : أعط مماليكك هذا الطعام ، وأنا أعطيك ثمنه ، لم يمنّ على المماليك ، لاسيما إذا كان يعلم أن الله قد أنعم عليه بالإعطاء .

فصـــل

[الذنوب ابتلاء]

٦١ – الفرق السادس : أن يقال : إن مايبتلى به العبد من الذنوب الوجودية – إن كانت خلقاً لله – فهو عقوبة له على عدم فعله ماخلقه الله له ، وفطره عليه . فإن الله إنما خلقه لعبادته وحده لاشريك له ، ودلّه على الفطرة ، كما قال النبى ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة » وقال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠] .

فهو لما لم يفعل ما خلق له ، وما فطر عليه ، وما أمر به – من معرفة الله وحده ، وعبادته وحده – عوقب على ذلك ، بأن زين له الشيطان مايفعله من الشرك والمعاصى .

قال تعالى للشيطان : ﴿ اذْهَبْ : فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً – إلى قوله – إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الإسراء : ٦٣ – ٦٥] وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : ٩٩ ، ١٠٠] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ . وَإِخْوَانُهُم يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠١ ، ٢٠٢] .

[الإخلاص شفاء]

٦٢ – قد تبين : أن إخلاص الدين لله : يمنع من تسلط الشيطان ، ومن ولاية الشيطان التى توجب العذاب . كما قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤] .

فإذا أخلص العبد لربه الدين : كان هذا مانعاً له من فعل ضد ذلك ومن إيقاع الشيطان له فى ضد ذلك ، وإذا لم يخلص لربه الدين ولم يفعل ماخلق له وفطر عليه . عوقب على ذلك ، وكان من عقابه : تسلط الشيطان عليه ، حتى يُزَيِّن له فعل السيئات ، وكان إلهامه لفجوره : عقوبة له على كونه لم يتق الله .

وعدم فعله للحسنات : ليس أمراً وجودياً ، حتى يقال : إن الله خلقه ، بل هو أمر عدمى ، لكن يعاقب عليه لكونه : عدم ماخلق له ، وماأمر به ، وهذا يتضمن من العقوبة على أمر عدمى ، لكن بفعل السيئات لا بالعقوبات التى يستحقها بعدم إقامة الحجة عليه بالنار ونحوها .

وقد تقدم أن مجرد عدم المأمور : هل يعاقب عليه ؟ فيه قولان .

والأكثرون يقولون : لا يعاقب عليه لأنه عدم محض ، ويقولون : إنما يعاقب على الترك ، وهذا أمر وجودى .

وطائفة – منهم : أبو هاشم – قالوا : بل يعاقب على هذا العدم . بمعنى أنه يعاقب عليه ، كما يعاقب على فعل الذنوب بالنار ونحوها .

وما ذكر فى هذا الوجه ؛ هو أمر وسط : وهو أن يعاقبه على هذا العدم بفعل السيئات ، لا بالعقوبة عليها ، ولا يعاقبه عليها حتى يرسل إليه رسوله ، فإذا عصى الرسول : استحق حينئذ العقوبة التامة . وهو أولا إنما عوقب بما يمكن أن ينجو من شره ، بأن يتوب منه ، أو بأن لا تقوم عليه الحجة ، وهو كالصبى الذى لا يشتغل بما ينفعه ، بل بما هو سبب لضرره ، ولكن لا يكتب عليه قلم الإثم حتى يبلغ . فإذا بلغ عوقب .

ثم ماتعوّده من فعل السيئات : قد يكون سبباً لمعصيته بعد البلوغ ، وهو لم يعاقب إلا على ذنبه ، ولكن العقوبة المعروفة : إنما يستحقها بعد قيام الحجة عليه . أما اشتغاله بالسيئات : فهو عقوبة عدم عمله للحسنات .

[الشر ليس إلى الله]

٦٣ – وعلى هذا : فالشر ليس إلى الله بوجه من الوجوه فإنه – وإن كان الله خالق أفعال العباد – فخلقه للطاعات : نعمة ورحمة ، وخلقه للسيئات : له فيه حكمة ورحمة . وهو – مع هذا – عدل منه . فما ظلم الناس شيئاً ولكن الناس ظلموا أنفسهم .

وظلمهم لأنفسهم نوعان : عدم عملهم بالحسنات . فهذا ليس مضافاً إليه .

وعملهم للسيئات : خلقه عقوبة لهم على ترك فعل الحسنات التى خلقهم لها ، وأمرهم بها . فكل نعمة منه فضل ؛ وكل نقمة منه عدل .

ومن تدبَّر القرآن تبين له ، أن عامة مايذكره الله فى خلق الكفر والمعاصى يجعله جزاء لذلك العمل . كقوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ . كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ [الليل : ٨ - ١٠] .

وهذا وأمثاله : بذلوا فيه أعمالا عاقبهم بها على فعل محظور وترك مأمور .

وتلك الأمور إنما كانت منهم وخلقت فيهم لكونهم لم يفعلوا ماخلقوا له ، ولابد لهم من حركة وإرادة ، فلما لم يتحركوا بالحسنات حركوا بالسيئات ، عدلا من الله ، حيث وضع ذلك موضعه فى محله القابل له - وهو القلب الذى لا يكون إلا عاملا - فإذا لم يعمل الحسنة استعمل فى عمل السيئة . كما قيل : نفسك إن لم تشغلها شغلتك .

وهذا الوجه - إذا حقق - يقطع مادة كلام القدرية المكذبة ، والمجبرة الذين يقولون : إن أفعال العباد ليست مخلوقة الله . ويجعلون خلقها والتعذيب عليها ظلماً . والذين يقولون : إنه خلق كفر الكافرين ومعصيتهم ، وعاقبهم على ذلك لا لسبب ولا لحكمة .

فإذا قيل لأولئك : إنه إنما أوقعهم فى تلك الذنوب . وطبع على قلوبهم عقوبة لهم على عدم فعلهم ماأمرهم به ، فما ظلمهم ولكن هم ظلموا أنفسهم .

يقال : ظلمته إذا نقصته حقه . قال تعالى : ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً ﴾ [الكهف : ٣٣] .

وكثير من أولئك يسلمون أن الله خلق للعبد من الأعمال مايكون جزاء له على عمل منه متقدم . ويقولون : إنه خلق طاعة المطيع .

فلا ينازعون فى نفس خلق أفعال العباد . لكن يقولون : ماخلق شيئا من الذنوب ابتداء . بل إنما خلقها جزاء لئلا يكون ظالماً .

[الذنب يحدثه العبد]

٦٤ – فنقول : أول مايفعله العبد من الذنوب : هو أحدثه ، لم يحدثه الله . ثم مايكون جزاء على ذلك : فالله محدثه ؛ وهم لاينازعون فى مسألة خلق الأفعال إلا من هذه الجهة . وهذا الذى ذكرناه يوافقون عليه . لكن يقولون : أول الذنوب لم يحدثه الله ، بل يحدثه العبد ، لئلا يكون الجزاء عليه ظلماً .

وما ذكرناه : يوجب أن الله خالق كل شىء ، فما حدث شىء إلا بمشيئته وقدرته ، ولكن أول الذنوب الوجودية : هو المخلوق . وذلك عقوبة على عدم فعل العبد لما خلق له ، ولما كان ينبغى له أن يفعله .

وهذا العدم لايجوز إضافته إلى الله ، وليس بشىء حتى يدخل فى قولنا : ﴿ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وما أحدثه من الذنوب الوجودية فأولها : عقوبة للعبد على هذا العدم . وسائرها : قد يكون عقوبة للعبد على ماوجد . وقد يكون عقوبة له على استمراره على العدم .

فما دام لايخلص لله العمل : فلا يزال مشركاً ولايزال الشيطان مسلطاً عليه .

ثم تخصيصه سبحانه لمن هداه – بأن استعمله ابتداء فيما خلق له ، وهذا لم يستعمله – هو تخصيص منه بفضله ورحمته . ولهذا يقول الله : ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [البقرة : ١٠٥] . ولذلك حكمة ورحمة هو أعلم بها كما خص بعض الأبدان بقوى لاتوجد فى غيرها ، وبسبب عدم القوة قد تحصل له أمراض وجودية وغير ذلك من حكمته .

وبتحقيق هذا يدفع شبهات هذا الباب . والله أعلم بالصواب .

فصـــل

[عقوبة عدم الإيمان]

٦٥ – ومما ذكر فيه العقوبة على عدم الإيمان ، قوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٠] وهذا من تمام قوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ : أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ الآية . فذكر : أن هذا التقليب إنما حصل لقلوبهم لما لم يؤمنوا به أول مرة ، وهذا عدم الإيمان .

لكن يقال : إنما كان هذا بعد دعوة الرسول لهم ، وهم قد تركوا الإيمان وكذبوا الرسول . وهذه أمور وجودية ، لكن الموجب للعذاب : هو عدم الإيمان ، وماذكر شرط فى التعذيب ، بمنزلة إرسال الرسول ، فإنه قد يشتغل عن الإيمان بما جنسه مباح – من أكل وشرب ، وبيع وسفر ، وغير ذلك – وهذا الجنس لايستحق عليه العقوبة ، إلا لأنه شغله عن الإيمان الواجب عليه .

ومن الناس من يقول : ضد الإيمان هو تركه . وهو أمر وجودى ، لا ضد له إلا ذلك .

فصـــل

[النعم كلها من الله]

٦٦ – الفرق السابع : من الحسنات والسيئات التى تتناول الأعمال والجزاء فى كون هذه تضاف إلى النفس ، وتلك تضاف إلى الله : أن السيئات التى تصيب الإنسان – وهى مصائب الدنيا والآخرة – ليس لها سبب إلا ذنبه الذى هو نفسه ، فانحصرت فى نفسه .

وأما مايصيبه من الخير والنعم : فإنه لاتنحصر أسبابه ؛ لأن ذلك من فضل الله وإحسانه ، ويحصل بعمله وبغير عمله ، وعمله نفسه من إنعام الله عليه ، وهو سبحانه لايجزى بقدر العمل ، بل يضاعفه له . ولا يقدر العبد على ضبط أسبابها ، لكن يعلم أنها من فضل الله وإنعامه ، فيرجع فيها إلى الله ، فلا يرجو إلا الله ،

ولا يتوكل إلا عليه ، ويعلم أن النعم كلها من الله ، وأن كل ماخلقه فهو نعمة ، كما تقدم ، فهو يستحق الشكر المطلق العام ، الذى لا يستحقه غيره .

ومن الشكر : مايكون جزاء على مايسره على يديه من الخير ، كشكر الوالدين وشكر من أحسن إليك من غيرهما ، فإنه « من لايشكر الناس لا يشكر الله » ، لكن لايبلغ من حق أحد وإنعامه ، أن يشكر بمعصية الله ، أو أن يطاع بمعصية الله ، فإن الله هو المنعم بالنعم العظيمة ، التى لايقدر عليها مخلوق ، ونعمة المخلوق إنما هى منه أيضاً . وقال تعالى : ﴿ وَمَابِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ [النحل : ٥٣] وقال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِى السَّمٰوَاتِ وَمَافِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣] ، وجزاؤه سبحانه على الطاعة والمعصية والكفر لا يقدر أحد على مثله .

[لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق]

٦٧ — فلهذا لم يجز أن يطاع مخلوق فى معصية الخالق ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ، وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ [العنكبوت : ٨] ، وقال فى الآية الأخرى : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ [لقمان : ١٥] .

وقال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « على المرء المسلم : السمع والطاعة فى عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه ، مالم يؤمر بمعصية ؛ فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . وفى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « إنما الطاعة فى المعروف » وقال : « من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه » وقال : « لا طاعة لمخلوق على معصية الخالق » .

وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أنه إذا عرف أن النعم كلها من الله ، وأنه لايقدر أن يأتى بها إلا الله . فلا يأتى بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب السيئات إلا هو ، وأنه ﴿ مَايَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَايُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَه مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [فاطر : ٢] صار توكله ورجاؤه ودعاؤه للخالق وحده .

وكذلك إذا علم مايستحقه الله من الشكر — الذى لا يستحقه غيره — صار

علمه بأن الحسنات من الله : يوجب له الصدق فى شكر الله ، والتوكل عليه .

ولو قيل : إنها من نفسه لكان غلطاً ؛ لأن منها ماليس لعمله فيه مدخل . وما كان لعمله فيه مدخل ؛ فَإِنَّهُ الله هو المنعم به ؛ وَإِنَّهُ لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه .

وعلم أن الشر قد انحصر سببه فى النفس ، فضبط ذلك وعلم من أين يؤتى ، فاستغفر ربه مما فعل وتاب ، واستعان الله واستعاذ به مما لم يعمل بعد ، كما قال من قال من السلف : « لا يرجونَّ عبد إلا ربه . ولا يخافَنَّ عبد إلا ذنبه » .

وهذا يخالف قول الجهمية ومن اتبعهم ، للذين يقولون : إن الله يعذب بلا ذنب ، ويعذب أطفال الكفار وغيرهم عذاباً دائماً أبداً بلا ذنب .

فإن هؤلاء يقولون : يخاف الله خوفاً مطلقاً . سواء كان له ذنب أو لم يكن له ذنب ، ويشبهون خوفه بالخوف من الأسد ، ومن الملك القاهر الذى لاينضبط فعله ولا سطوته ، بل قد يقهر ويعذب من لا ذنب له من رعيته .

فإذا صدق العبد بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ علم بطلان هذا القول ، وأن الله لايعذبه ويعاقبه إلا بذنوبه ، حتى المصائب التى تصيب العبد كلها بذنوبه .

وقد تقدم قول السلف — ابن عباس وغيره — أن ما أصابهم يوم أُحد من الغم والفشل ؛ إنما كان بذنوبهم ، لم يستثن من ذلك أحد .

وهذا من فوائد تخصيص الخطاب ، لئلا يظن أنه عام مخصوص .

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا همّ ولا حزن ولا غمّ — حتى الشوكة يُشاكها — إلا كفر الله بها من خطاياه » .

فصل

[حبث السيئات]

٦٨ — الفرق الثامن : إن السيئة إذا كانت من النفس ، والسيئة خبيثة

مذمومة ، وصفها بالخبث فى مثل قوله : ﴿ الخَبِيثَاتُ للخَبِيثِينَ والخَبِيثُونَ للخَبِيثَاتِ ﴾ [النور : ٢٦] .

قال جمهور السلف : الكلمات الخبيثة للخبيثين ، ومن كلام بعضهم : الأقوال والأفعال الخبيثة للخبيثين .

وقد قال تعالى ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا : كَلِمَةً طَيِّبَةً – وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ [إبراهيم : ٢٤ – ٢٦] .

وقال الله ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : ١٠] والأقوال والأفعال صفات القائل والفاعل .

فإذا كانت النفس متصفة بالسوء والخبيث لم يكن محلها ينفعه إلا مايناسبها .

فمن أراد : أن يجعل الحيات والعقارب تعاشر الناس كالسنانير : لم يصلح .

ومن أراد : أن يجعل الذى يكذب شاهداً على الناس : لم يصلح .

وكذلك من أراد : أن يجعل الجاهل معلماً للناس ، مفتياً لهم ، أو يجعل العاجز الجبان مقاتلا عن الناس ، أو يجعل الأحمق الذى لايعرف شيئاً سائساً للناس ، أو للدواب ، فمثل هذا يوجب الفساد فى العالم ، وقد يكون غير ممكن ، مثل ما أراد أن يجعل الحجارة تسبحُ على وجه الماء كالسفن ، أو تصعد إلى السماء كالريح ، ونحو ذلك .

فالنفوس الخبيثة لاتصلح أن تكون فى الجنة الطيبة التى ليس فيها من الخبث شىء ، فإن ذلك موجب للفساد ، أو غير ممكن .

بل إذا كان فى النفس خبث طهرت وهذّبت ، حتى تصلح لسكنى الجنة .

كما فى الصحيح من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ : « إن المؤمنين إذا نجوا من النار – أى عبروا الصراط – وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا . فإذا هذبوا ونقوا . أذن لهم فى دخول الجنة » .

وهذا مما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ :

« يخلص المؤمنون من النار . فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا : أُذن لهم فى دخول الجنة ، فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا » .

والتهذيب : التخليص ، كما يهذب الذهب : فيخلص من الغش .

فتبين أن الجنة إنما يدخلها المؤمنون بعد التهذيب والتنقية من بقايا الذنوب ، فكيف يمكن لمن لم يكن له حسنات يعبر بها الصراط ؟ .

وأيضاً فإذا كان سببها ثابتاً فالجزاء كذلك ، بخلاف الحسنة ، فإنها من إنعام الحى القيوم الباقى ، الأول الآخر ، فسببها دائم ، فيدوم بدوامه .

وإذا علم الإنسان أن السيئة من نفسه : لم يطمع فى السعادة التامة ، مع مافيه من الشر ، بل علم تحقيق قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء : ١٢٣] وقوله ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] .

وعلم أن الرب عليم حليم ، رحيم عدل ، وأن أفعاله جارية على قانون العدل والإحسان ، وكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل .

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « يمين الله ملأى ، لايغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار . أرأيتم ماأنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يغض مافى يمينه ، والقسط بيده الأخرى يخفض ويرفع » .

[الثواب والعقاب ، لحكمة وعدل]

٩٦ – وعلم فساد قول الجهمية ، الذين يجعلون الثواب والعقاب بلا حكمة ولا عدل ، ولا وضع للأشياء مواضعها ، فيصفون الرب بما يوجب الظلم والسفه ، وهو سبحانه قد شهد ﴿ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلَائِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

ولهذا يقولون : لا ندرى مايفعل بمن فعل السيئات ، بل يجوز عندهم . أن

يعفو عن الجميع ، ويجوز عندهم : أن يعذب الجميع ، ويجوز أن يعذب ويغفر بلا موازنة ، بل يعفو عن شر الناس ، ويعذب خير الناس على سيئة صغيرة ، ولا يغفرها له .

وهم يقولون : السيئة لا تمحى ، لا بتوبة ، ولا حسنات ماحية ، ولا غير ذلك . وقد لا يفرقون بين الصغائر والكبائر .

قالوا : لأن هذا كله إنما يعلم بالسمع والخبر . خبر الله ورسوله .

قالوا : وليس فى الكتاب والسنة مايبين مايفعل الله بمن كسب السيئات ، إلا الكفر ، وتأولوا قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَاتُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [النساء : ٣١] بأن المراد بالكبائر : قد يكون هو الكفر وحده ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء : ٤٨] .

وقد ذكر هذه الأمور القاضى أبو بكر الباقلانى وغيره ، ممن يقول بمثل هذه الأقوال ممن سلك مسلك جهم بن صفوان فى القدر وفى الوعيد ، وهؤلاء قصدوا مناقشة المعتزلة فى القدر والوعيد .

فأولئك لما قالوا : إن الله لم يخلق أعمال العباد ، وأنه يشاء ما لا يكون ، ويكون ما لا يشاء ، وسلكوا مسلك نفاة القدر فى هذا ، وقالوا فى الوعيد بنحو قول الخوارج . قالوا : إن من دخل النار لا يخرج منها ، لا بشفاعة ولا غيرها بل يكون عذابه مؤبدا ، فصاحب الكبيرة ، أو من رجحت سيئاته – عندهم – لا يرحمه الله أبداً ، بل يخلده فى النار ، فخالفوا السنة المتواترة وإجماع الصحابة فيما قالوه فى القدر ، وناقضهم جَهْم فى هذا وهذا .

وسلك هؤلاء مسلك جَهْم ، مع انتسابهم إلى السنة والحديث واتباع السلف ، وكذلك سلكوا فى الإيمان والوعيد مسلك المرجئة الغلاة ، كجهم وأتباعه .

[جهم وبدعته]

٧٠ – وجَهْم اشتهر عنه نوعان من البدعة : نوع فى الأسماء والصفات .

فغلا فى نفى الأسماء والصفات ، ووافقه على ذلك ملاحدة الباطنية والفلاسفة

ونحوهم ، ووافقه المعتزلة فى نفى الصفات دون الأسماء .

والكلابية – ومن وافقهم من السالمية ، ومن سلك مسلكهم من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية – وافقوه على نفى الصفات الاختيارية ، دون نفى أهل الصفات .

والكرامية ونحوهم : وافقوه على أصل ذلك ، وهو امتناع دوام ما لا يتناهى ، وأنه يمتنع أن يكون الله لم يزل متكلما إذا شاء ، وفعالا لما يشاء إذا شاء ، لامتناع حوادث لا أول لها ، وهو – عن هذا الأصل الذى هو نفي وجود ما لا يتناهى فى المستقبل – قال بفناء الجنة والنار .

وقد وافقه أبو الهذيل إمام المعتزلة على هذا ، لكن قال : بتناهى الحركات . فالمعتزلة فى الصفات مخانيث الجهمية .

وأما الكلابية : فيثبتون الصفات فى الجملة ، وكذلك الأشعريون ، ولكنهم كما قال الشيخ أبو إسماعيل الأنصارى – الجهمية الإناث ، وهم مخانيث المعتزلة .

ومن الناس من يقول : المعتزلة مخانيث الفلاسفة .

وقد ذكر الأشعرى وغيره هذا ، لأن قائله لم يعلم أن جهماً سبق هؤلاء إلى هذا الأصل ، أو لأنهم مخانيثهم من بعض الوجوه ، وإلا فإن مخالفتهم للفلاسفة كبيرة جداً .

والشهرستانى يذكر عن الفلاسفة ، لأن الشهرستانى إنما يرى مناظرة أصحاب الأشعرية فى الصفات ونحوها مع المعتزلة ، بخلاف أئمة السنة والحديث فإن مناظرتهم إنما كانت مع الجهمية ، وهم المشهورون عند السلف والأئمة بنفى الصفات .

وأهل النفى للصفات والتعطيل لها : هم عند السلف ، يقال لهم : الجهمية ، وبهذا تميزوا عند السلف عن سائر الطوائف .

[نشأة المعتزلة والجهمية]

٧١ – وأما المعتزلة : فامتازوا بقولهم بالمنزلة بين المنزلتين ، لما أحدث ذلك عمرو بن عبيد ، وكان هو وأصحابه يجلسون معتزلين للجماعة ، فيقول قتادة وغيره : أولئك المعتزلة . وكان ذلك بعد موت الحسن البصرى فى أوائل المائة الثانية .

وبعدهم حدثت الجهمية .

وكان القدر : قد حدث أهله قبل ذلك فى خلافة عبد الله بن الزبير ، بعد موت معاوية ، ولهذا تكلم فيهم ابن عمر وابن عباس – رضى الله عنهم – وغيرهما .

وابن عباس مات قبل ابن الزبير ، وابن عمر مات عقب موته ، وعقب ذلك تولى الحجاج العراق سنة بضع وسبعين .

فبقى الناس يخوضون فى القدر بالحجاز والشام والعراق ، وأكثره : كان بالشام والعراق بالبصرة ، وأقله : كان بالحجاز .

ثم لما حدثت المعتزلة – بعد موت الحسن ، وتكلم فى المنزلة بين المنزلتين ، وقالوا بإنفاذ الوعيد ، وخلود أهل التوحيد فى النار ، وأن النار لا يخرج منها من دخلها . وهذا تغليظ على أهل الذنوب – ضموا إلى ذلك القدر ، فإن به يتم التغليظ على أهل الذنوب ، ولم يكن الناس إذ ذاك قد أحدثوا شيئاً من نفى الصفات .

[ظهور الجعد بن درهم]

٧٢ – إلى أن ظهر الجعد بن درهم ، وهو أولهم ، فضحى به خالد بن عبد الله القسرى ، وقال : « أيها الناس ، ضحوا ، تقبل الله ضحاياكم ، فإنى مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم ، أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً » ثم نزل فذبحه وهذا كان بالعراق .

ثم ظهر جهم بن صفوان من ناحية المشرق من ترمذ ، ومنها ظهر رأى جهم .

ولهذا كان علماء السنة والحديث بالمشرق ، أكثر كلاماً فى رد مذهب جهم من أهل الحجاز والشام والعراق ، مثل إبراهيم بن طهمان وخارجة بن مصعب ، ومثل عبد الله بن المبارك . وأمثالهم – وقد تكلم فى ذمهم – وابن الماجشون وغيرهما ، وكذلك الأوزاعى وحماد بن زيد وغيرهم .

[محنة الإمام أحمد بن حنبل]

٧٣ – وإنما اشتهرت مقالتهم من حين محنة الإمام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنة ، فإنهم فى إمارة المأمون قووا وكثروا . فإنه كان قد أقام بخراسان مدة ،

واجتمع بهم ، ثم كتب بالمحنة من طرطوس [١] سنة ثمان عشرة ومائتين ، وفيها مات ، وردوا أحمد بن حنبل إلى الحبس ببغداد ، إلى سنة عشرين ، وفيها كانت محنته مع المعتصم ومناظرته لهم فى الكلام ، فلما ردَّ عليهم مااحتجوا به عليه ، وبيَّن أن لا حجة لهم فى شيء من ذلك ، وأن طلبهم من الناس أن يوافقوهم ، وامتحانهم إياهم ، جهل وظلم . وأراد المعتصم إطلاقه ، فأشار عليه من أشار بأن المصلحة ضربه ، حتى لا تنكسر حرمة الخلافة مرة بعد مرة . فلما ضربوه قامت الشناعة عليهم فى العامة ، وخافوا الفتنة ، فأطلقوه .

[القائلون بخلق القرآن]

٧٤ — وكان أحمد بن أبى دؤاد قد جمع له نفاة الصفات القائلين بخلق القرآن من جميع الطوائف ، فجمع له مثل أبى عيسى محمد بن عيسى بن غوث ، ومن أكابر النجارية أصحاب حسين النجار .

وأئمة السنة — كان المبارك ، وأحمد بن إسحاق ، والبخارى وغيرهم — يسمون جميع هؤلاء : جهمية .

وصار كثير من المتأخرين — من أصحاب أحمد وغيرهم — يظنون أن خصومه كانوا المعتزلة .

ويظنون أن بشر بن غياث المريسى — وإن كان قد مات قبل محنة أحمد ، وابن أبى دؤاد ونحوهما — كانوا معتزلة . وليس كذلك .

بل المعتزلة كانوا نوعاً من جملة من يقول القرآن مخلوق ، وكانت الجهمية أتباع جهم ، والنجارية أتباع حسين النجار ، والضرارية أتباع ضرار بن عمرو ، والمعتزلة هؤلاء يقولون : القرآن مخلوق : وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا : أن جهماً اشتهر عنه نوعان من البدعة . أحدهما : نفى الصفات ، والثانى : الغلو فى القدر والإرجاء . فجعل الإيمان مجرد معرفة القلب ، وجعل العباد لا فعل لهم ولا قدرة .

---

(١) وكان خرج إليها لغزو الروم .

وهذا مما غلت المعتزلة فى خلافه فيهما .

[رأى الأشعرى]

٧٥ – وأما الأشعرى . فوافقه على أصل قوله ، ولكن قد ينازعه منازعات لفظية .

وجهم لم يثبت شيئاً من الصفات – لا الإرادة ولا غيرها – فهو إذا قال : إن الله يحب الطاعات ، ويبغض المعاصى ، فمعنى ذلك عنده : الثواب والعقاب .

وأما الأشعرى : فهو يثبت الصفات – كالإرادة – فاحتاج حينئذ أن يتكلم فى الإرادة : هل هى المحبة أم لا ؟ وأن المعاصى : هل يحبها الله أم لا ؟ فقال : إن المعاصى يحبها الله ويرضاها ، كما يريدها .

وذكر أبو المعالى الجوينى : أنه أول من قال ذلك ، وأن أهل السنة قبله كانوا يقولون : إن الله لايحب المعاصى .

وذكر الأشعرى فى الموجز : أنه قد قال ذلك قبله طائفة سماهم ، أشك فى بعضهم .

[رأى الهروى]

٧٦ – وشاع هذا القول فى كثير من الصوفية ومشايخ المعرفة والحقيقة ، فصاروا يوافقون جهماً فى مسائل الأفعال والقدر ، وإن كانوا مكفِّرين له فى مسائل الصفات ، كأبى إسماعيل الأنصارى الهروى ، صاحب كتاب « ذم الكلام » فإنه من المبالغين فى ذم الجهمية لنفيهم الصفات . وله كتاب « تكفير الجهمية » ويبالغ فى ذم الأشعرية ، مع أنهم من أقرب هذه الطوائف إلى السنة والحديث ، وربما كان يلعنهم .

وقد قال له بعض الناس – بحضرة نظام الملك – أتلعن الأشعرية ؟ فقال : ألعن من يقول : ليس فى السموات إله ، ولا فى المصحف قرآن ، ولا فى القبر نبى ، وقام من عنده مغضباً .

ومع هذا فهو فى مسألة إرادة الكائنات ، وخلق الأفعال ؛ أبلغ من الأشعرية . لا يثبت سبباً ، ولا حكمة ، بل يقول : إن مشاهدة العارف الحكم لاتبقى له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة .

والحكم عنده : هى المشيئة . لأن العارف المحقق - عنده - هو من يصل إلى مقام الفناء ، فيفنى عن جميع مراداته بمراد الحق ، وجميع الكائنات مرادة له ، وهذا هو الحكم عنده . و « الحسنة » و « السيئة » يفترقان فى حظ العبد ، لكونه ينعم بهذه ، ويعذب بهذه ، والالتفات إلى هذا هو من حظوظ النفس ، ومقام الفناء ليس فيه إلا مشاهدة مراد الحق .

[رأى الجنيد]

٧٧ - وهذه المسألة وقعت فى زمن الجنيد ، كما ذكر فى غير موضع .

وبيَّن لهم الجنيد الفرق الثانى ، وهو أنهم - مع شاهدة المشيئة العامة . لابد لهم من مشاهدة الفرق بين ما يأمر الله به وما ينهى عنه . وهو الفرق بين مايحبه وما يبغضه ، وبيَّن ذلك لهم الجنيد ، كما قال فى التوحيد : هو إفراد الحدوث عن القدم .

فمن سلك مسلك الجنيد من أهل التصوف والمعرفة ، كان قد اهتدى ونجا وسعد ، ومن لم يسلك فى القدر مسلكه ، بل سوَّى بين الجميع : لزمه أن لايفرق بين الحسنات والسيئات ، وبين الأنبياء والفساق ، فلا يقول : إن الله يحب هؤلاء ، وهذه الأعمال ، ولا يبغض هؤلاء ، وهذه الأعمال . بل جميع الحوادث هو يحبها كما يريد ، كما قاله الأشعرى . وإنما الفرق : أن هؤلاء ينعمون ، وهؤلاء يعذبون .

والأشعرى لما أثبت الفرق بين هذا وهذا - بالنسبة إلى المخلوق - كان أعقل منهم فإن هؤلاء يدعون أن العارف الواصل إلى مقام الفناء لا فرق بين هذا وهذا ، وهم غلطوا فى حق العبد وحق الرب .

[مذهب الصوفية فى الفناء وما يلزم عليه]

٧٨ - أما فى حق العبد ، فيلزمهم أن تستوى عنده جميع الحوادث ، وهذا محال قطعاً ، وهم قد تمر عليهم أحوال يفنون فيها عن أكثر الأشياء .

أما الفناء عن جميعها : فممتنع ، فإنه لابد أن يفرق كل حى بين مايؤلمه وبين مايلذه ، فيفرق بين الخبز والتراب ، والماء والشراب .

فهؤلاء : عزلوا الفرق الشرعى الإيمانى والرحمانى الذى به فرق الله بين أوليائه وأعدائه ، وظنوا أنهم مع الجمع القدرى .

وعلى هذا : فإن تسوية العبد بين جميع الحوادث ممتنع لذاته ، بل لابد للعبد من أن يفرق ، فإن لم يفرق بالفرق الشرعى – فيفرق بين محبوب الحق ومكروهه ، وبين مايرضاه له وما يسخطه – وإلا فرق بالفرق الطبيعى بهواه وشيطانه ، فيحب ماتهواه نفسه ، وما يأمره به شيطانه .

ومن هنا : وقع منهم خلق كثير فى المعاصى وآخرون فى الفسوق ، وآخرون فى الكفر ، حتى جوّزوا عبادة الأصنام .

[وحدة الوجود]

٧٩ – ثم كثير منهم من ينتقل إلى وحدة الوجود ، وهم الذين خالفوا الجنيد ، وأئمة الدين فى التوحيد ، فلم يفرقوا بين القديم له المحدث .

وهؤلاء صرحوا بعبادة كل موجود ، كما بسط الكلام عليهم فى غير هذا الموضع ، وهو قول أهل الوحدة ؛ كابن عربى الحاتمى ، وابن سبعين ، والقونوى ، والتلمسانى ، والبلبانى ، وابن الفارض ، وأمثالهم .

والمقصود هنا : الكلام على من نفى الحكم والعدل والأسباب فى القدر بين أهل الكلام والمتصوفة الذين أوقعوا جهماً فى هذا الأصل ، وهو بدعته الثانية التى اشتهرت عنه بخلاف الإرجاء ؛ فإنه منسوب إلى طوائف غيره .

[حكمة الله وعدله]

٨٠ – فهؤلاء يقولون : إن الرب يجوز أن يفعل كل مايقدر عليه .

ويمكن فعله من غير مراعاة حكمة ، ولا رحمة ولا عدل . ويقولون : إن مشيئته هى محبته .

ولهذا تجد من اتبعهم غير معظم للأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، بل هو منحل من الأمر الشرعى كله ، أو بعضه ، أو متكلف لما يعتقده أو يعلمه ، فإنهم أرادوا : أن الجميع بالنسبة إلى الرب سواء ، وأن كل ماشاءه فقد أحبه ، وأنه يحدث مايحدثه بدون أسباب يخلقه بها ، ولا حكمة يسوقه إليها ، بل غايته أنه يسوق المقادير إلى المواقيت .

لم يبق عندهم فرق فى نفس الأمر بين المأمور والمحظور ؛ بل وافقوا جهماً ومن قال بقوله – كالأشعرى – فى أنه فى نفس الأمر : لا حسن ولا سيىء وإنما الحسن والقبيح : مجرد كونه مأموراً به ومحظوراً ، وذلك فرق يعود إلى حظ العبد ، وهؤلاء يدعون الفناء عن الحظوظ .

فتارة يقولون فى امتثال الأمر والنهى : إنه من مقام التلبيس أو ما يشبه هذا . كما يوجد فى كلام أبى إسماعيل الهروى صاحب منازل السائرين .

وتارة يقولون : يفعل هذا لأهل المارستان ، أى العامة ، كما يقوله الشيخ المغربى ، إلى أنواع ، ليس هذا موضع بسطها .

[فى كلام الشاذلى تعطيل الأمر]

٨١ – ومن يسلك مسلكهم : غايته – إذا عظم الأمر والنهى – أن يقول ، كما نقل عن الشاذلى : يكون الجمع فى قلبك مشهوداً ، والفرق على لسانك موجوداً .

ولهذا يوجد فى كلامه وكلام غيره : أقوال وأدعية وأحزاب تستلزم تعطيل الأمر والنهى مثل أن يدعو : أن يعطيه الله إذا عصاه أعظم مما يعطيه إذا أطاعه . ونحو هذا مما يوجب أنه يجوز عنده : أن يجعل الذين اجترحوا السيئات ، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، بل أفضل منهم ، ويدعون بأدعية فيها اعتداء ، كما يوجد فى جواب الشاذلى . وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع .

[الكرامات عند الصوفية]

٨٢ – وآخرون – من عوام هؤلاء – يجوزون : أن يكرم الله بكرامات أكابر الأولياء من يكون فاجراً ، بل كافراً ، ويقولون هذه موهبة وعطية ، يعطيها الله من يشاء ، ما هى متعلقة لا بصلاة ولا بصيام . ويظنون أن تلك من كرامات الأولياء . وتكون كراماتهم من الأحوال الشيطانية التى يكون مثلها للسحرة والكهان . قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَاتَّبَعُوا مَاتَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ

وَمَا أُنْزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ [البقرة : ١٠١ ، ١٠٢] .

وقد قال النبي ﷺ : « لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ لدخلتموه » .

والمسلمون الذين جاءهم كتاب الله القرآن : عدل كثير منهم – ممن أضله الشيطان من المنتسبين إلى الإسلام – إلى نبذ كتاب الله وراء ظهره ، واتبع ما تتلوه الشياطين فلا يعظم أمر القرآن ولا نهيه ، ولا يوالى من أمر القرآن بموالاته ، ولا يعادى من أمر القرآن بمعاداته ؛ بل يعظم من رآه يأتى ببعض خوارقهم ، التى يأتى بمثلها السحرة والكهان . بإعانة الشياطين ، وهى تحصل بما تتلوه الشياطين .

ثم منهم من يعرف : أن هذا من الشياطين ، ولكن يعظم ذلك لهواه ، ويفضله على طريق القرآن ليصل به إلى تقديس العامة ، وهؤلاء كفار ، كالذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ ؟ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ ، وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ﴾ [النساء : ٥١ ، ٥٢] .

وهؤلاء ضاهئوا الكفار الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ، نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَايَعْلَمُونَ . وَاتَّبَعُوا مَاتَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَاكَفَرَ سُلَيْمَانُ ، وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا – الآية ﴾ [البقرة ١٠١ ، ١٠٢] .

ومنهم : من لا يعرف أن هذا من الشياطين .

[الشعوذة]

٨٣ – وقد يقع فى مثل هذا طوائف من أهل الكلام ، والعلم ، وأهل العبادة ، والتصوف ، حتى جوَّزوا عبادة الكواكب ، والأصنام ، لما رأوه فيها من الأحوال العجيبة ، التى تعينهم عليها الشياطين ، لما يحصل لهم بها من بعض أغراضهم ، من الظلم والفواحش ، فلا يبالون بشركهم بالله ، ولا كفرهم به وبكتابه ، إذا نالوا ذلك ، ولم يبالوا بتعليم ذلك للناس ، وتعظيمهم لهم ، لرياسة ينالونها . أو مال

ينالونه ، وإن كانوا قد علموا أنه الكفر والشرك : عملوه ، ودعوا إليه ، بل حصل عندهم ريب وشك فيما جاء به الرسول ﷺ ، أو اعتقاد أن الرسول خاطب الجمهور بما لا حقيقة له فى الباطن ، لأجل مصلحة الجمهور ، كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة والملاحدة والباطنية .

وقد دخل فى رأى هؤلاء طائفة من هؤلاء وهؤلاء . وهذا مما ضاهئوا به فارس والروم ، وغيرهم ، فإن فارس كانت تعظم الأنوار ، وتسجد للشمس وللنار ، والروم كانوا — قبل النصرانية — مشركين — يعبدون الكواكب والأصنام ، فهؤلاء الذين أشبهوا فارس والروم : شر من الذين أشبهوا اليهود والنصارى ، فإن أولئك ضاهئوا أهل الكتب فيما بدّل أو نسخ . وهؤلاء ضاهئوا من لا كتاب له من المجوس والمشركين ، فارس والروم ، ومن دخل فى ذلك من الهند واليونان .

ومذهب الملاحدة الباطنية : مأخوذ من قول المجوس بالأصلين ، ومن قول فلاسفة اليونان بالعقول والنفوس .

وأصل قول المجوس : يرجع إلى أن تكون الظلمة المضاهية للنور : هو إبليس ، وقول الفلاسفة بالنفس .

[أصل الشر]

٨٤ — فأصل الشر : عبادة النفس والشيطان ، وجعلهما شريكين للرب ، وأن يعدلا به . ونفس الإنسان تفعل الشر بأمر الشيطان . وقد علم النبى ﷺ أبا بكر رضى الله عنه أن يقول — إذا أصبح ، وإذا أمسى ، وإذا أخذ مضجعه —: « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة . أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » .

وهذا من تمام تحقيق قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ . وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] مع قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر : ٤٢] وقوله : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٨٥] .

وقد ظهرت دعوى النفس الإلٰهية فى فرعون . ونحوه ممن ادعى أنه إله مع الله أو من دونه ، وظهرت فيمن ادعى إلٰهية بشر مع الله كالمسيح وغيره .

[أصل الشرك]

٨٥ – وأصل الشرك فى بنى آدم : كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظمين ؛ فإنهم لما ماتوا : عكفوا على قبورهم ، ثم صوَّروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم .

فهذا أول شرك كان فى بنى آدم . وكان فى قوم نوح ، فإنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض ، يدعوهم إلى التوحيد ، وينهاهم عن الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَاتَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُواعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً . وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً ﴾ [نوح : ٢٣ ، ٢٤] ، وهذه أسماء قوم صالحين فى قوم نوح ، فلما ماتوا جعلوا الأصنام على صورهم ، ثم ذهبت هذه الأصنام ، لما أغرق الله أهل الأرض ، ثم صارت إلى العرب ، كما ذكر ذلك ابن عباس وغيره ، إن لم تكن أعيانها ، وإلا فهى نظائرها .

وأما الشرك بالشيطان : فهذا كثير .

فمتى لم يؤمن الخلق بأنه « لا إلٰه إلا الله » بمعنى : أنه المعبود المستحق للعبادة دون ماسواه . وأنه يحب أن يعبد ، وأنه أمر أن يعبد ، وأنه لا يعبد إلا بما أحبه مما شرع ، من واجب ومستحب – فلا بد أن يقعوا فى الشرك وغيره .

فالذين جعلوا الأقوال والأفعال كلها بالنسبة إلى الله سواء ، لايحب شيئاً دون شيء : فلا فرق عنده بين من يعبده وحده ، لا يشرك به شيئاً ، وبين من يعبد معه آلهة أخرى ، وجعلوا الأمر معلقاً بمشيئة ، ليس معها حكمة ، ولا رحمة ، ولا عدل . ولا فرق فيها بين الحسنات والسيئات : طمعت النفس فى نيل ماتريده بدون طاعة الله ورسوله .

[من صفات « الولى » عند الصوفية]

٨٦ – ثم إذا جوَّزوا الكرامات لكل من زعم الصلاح . ولم يقيدوا الصلاح بالعلم الصحيح والإيمان الصادق والتقوى ، بل جعلوا علامة الصلاح هذه الخوارق .

وجوزوا الخوارق مطلقاً ، وحكوا فى ذلك مكاشفات ، وقالوا أقوالا منكرة .

فقال بعضهم : إن الولى يعطى قول « كن » وقال بعضهم : إنه لايمتنع على الولى فعل ممكن ، كما لا يمتنع على الله تعالى فعل محال .

وهذا قاله ابن عربى والذين اتبعوه قالوا : إن الممتنع لذاته مقدور عليه ، ليس عندهم مايقال : إنه غير مقدور عليه الولى ، حتى ولا الجمع بين الضدين ولا غير ذلك ، وزاد ابن عربى : أن الولى لا يغرب عن قدرته شىء من الممكنات : والذى لا يغرب عن قدرته شىء من الممكنات : هو الله وحده .

فهذا تصريح منهم : بأن الولى مثل الله ، إن لم يكن هو الله .

وصرح بعضهم : بأنه يعلم كل مايعلمه الله ، ويقدر على كل ما يقدر الله عليه .

وادعوا أن هذا كان للنبى ، ثم انتقل إلى الحسن بن على ، ثم من الحسن إلى ذريته واحداً بعد واحد . حتى انتهى ذلك إلى أبى الحسن الشاذلى ، ثم إلى ابنه .

خاطبنى بذلك : من هو من أكابر أصحابهم .

وحدثنى الثقة من أعيانهم ، أنهم يقولون : إن محمداً هو الله .

وحدثنى بعض الشيوخ ، الذين لهم سلوك وخبرة : أنه كان هو وابن هود فى مكة ، فدخلا الكعبة ، فقال له ابن هود – وأشار إلى وسط الكعبة – هذا مهبط النور الأول . وقال له : لو قال لك صاحب هذا البيت : أريد أن أجعلك إلٰهًا ، ماذا كنت تقول له ؟ قال : فوقف شعرى من هذا الكلام وانخنست – أو كما قال .

[دعوى سهل التسترى فى الولاية]

٨٧ – من الناس من يحكى عن سهل بن عبد الله : أنه لما دخل الزنج البصرة . قيل له فى ذلك . فقال : هاه ، إن ببلدكم هذا من لو سألوا الله أن يزيل الجبال عن أماكنها لأزالها . ولو سألوه : أن لا يقيم القيامة لما أقامها ، لكنهم يعلمون مواضع رضاه . فلا يسألونه إلا ما يحب .

وهذه الحكاية : اما كذب على سهل – وهو الذى نختار أن يكون حقاً –

أو تكون غلطاً منه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وذلك : أن ماأخبر الله أن يكون فلا بد أن يكون ، ولو سأله أهل السموات والأرض أن لا يكون لم يجبهم ، مثل إقامة القيامة ، وأن لايملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين ، وغير ذلك ، بل كل ماعلم الله أنه يكون فلا يقبل الله دعاء أحد فى أن لا يكون .

لكن الدعاء سبب يقضى الله به ماعلم الله أنه سيكون بهذا السبب ، كما يقضى بسائر الأسباب ماعلم : أنه سيكون بها .

وقد سأل الله تعالى – من هو أفضل من كل من فى البصرة بكثير – ماهو دون هذا فلم يجابوا لما سبق الحكم بخلاف ذلك ، كما سأله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يغفر لأبيه ، وكما سأله نوح عليه السلام نجاة ابنه . فقيل له : ﴿ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ . فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [هود : ٤٦] .

وأفضل الخلق محمد ﷺ : قيل له فى شأن عمه أبى طالب ﴿ مَاكَانَ لِلنَّبِىِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِى قُرْبَىٰ ﴾ [التوبة : ١١٣] قيل له فى المنافقين : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمُ اسْتَغْفَرْتَ لَهِمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهِمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ [المنافقون : ٦] وقد قال تعالى عموماً : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وقال : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ : ٢٣] . فمن هذا الذى لو سأل الله مايشاؤه هو أعطاه إياه ؟!

وسيد الشفعاء محمد ﷺ يوم القيامة أخبر : أنه « يسجد تحت العرش ، ويحمد ربه ، ويثنى عليه ، فيقال له : أى محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، قال : فيحدّ لى حداً ، فأدخلهم الجنة » وقد قال تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٥] .

[الاعتداء فى الدعاء]

٨٨ – وأى اعتداء أعظم وأشنع من أن يسأل العبد ربه : أن لايفعل ماقد أخبر أنه لا بد أن يفعله ، وأن يفعل ما قد أخبر : أنه لا يفعله . وهو سبحانه كما أخبر عن نفسه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ؟ فَإِنِّى قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾

[البقرة ١٨٦] وقال : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ : ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] .

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « مامن داع يدعو الله بدعوة ، ليس فيها ظلم ، ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث : إما أن يعجل له دعوته . وإما أن يدخر له من الخير مثلها . وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها » .

فالدعوة التى ليس فيها اعتداء ، يحصل بها المطلوب بها أو مثله ، وهذا غاية الإجابة : فإن المطلوب بعينه قد يكون ممتنعاً أو مفسداً للداعى أو لغيره ، والداعى جاهل ، لا يعلم ما فيه المفسدة عليه ، والرب قريب مجيب ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، والكريم الرحيم : إذا سئل شيئاً بعينه ، وعلم أنه لايصلح للعبد إعطاؤه : أعطاه نظيره ، كما يصنع الوالد بولده إذا طلب ما ليس له ، فإنه يعطيه من ماله نظيره ، ولله المثل الأعلى .

كما فعل النبى ﷺ – لما طلبت منه طائفة من أبناء عمه أن يوليهم ولاية لا تصلح لهم – فأعطاهم من الخمس ماأغناهم عن ذلك وزوجهم ، كما فعل بالفضل ابن عباس ، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

وقد روى فى الحديث « ليس شىء أكرم على الله من الدعاء » وهذا حق .

فصــل

[لاتطلب الحسنات إلا من الله]

٨٩ – ولما كان الأمر كما أخبر الله به فى قوله : ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ أوجب هذا : لايطلب العبد الحسنات – والحسنات تدخل فيها كل نعمة – إلا من الله ، وأن يعلم أنها من الله وحده ، فيستحق الله عليها الشكر الذى لايستحقه غيره ، ويعلم أنه لا إله إلا هو ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ [النحل : ٥٣] .

فهذا يوجب على العبد شكره وعبادته وحده . ثم قال : ﴿ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [النحل : ٥٣] وهذا إخبار عن حالهم ، والجؤار : يتضمن رفع الصوت .

والإنسان إنما يجأر إذا مسه الضر ، وأما فى حال النعمة : فهو ساكن ، إما شاكراً وإما كفوراً . ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ . ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : ٥٣ ، ٥٤] .

وهذا المعنى قد ذكره الله فى غير موضع ، يذم من يشرك به بعد كشف البلاء عنه ، وإسباغ النعماء عليه ، فيضيف – بعد ذلك – الإنعام إلى غيره ، ويعبد غيره تعالى ، ويجعل المشكور غيره على النعم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ . لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٣ ، ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ؟ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ٦٣ ، ٦٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَاكَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾
[الزمر : ٨]

وقوله : « نسى ماكان يدعو إليه » أى نسى الضر الذى كان يدعو الله لدفعه إليه ، كما قال فى سورة الأنعام : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ . بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَاتَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ، وَتَنْسَوْنَ مَاتُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٠ ، ٤١] .

[المشركون عندما تنزل بهم الضراء]

٩٠ – فذم الله سبحانه حزبين . حزباً لايدعونه فى الضراء ولايتوبون إليه ، وحزباً يدعونه ويتضرعون إليه ويتوبون إليه ، فإذا كشف الضر عنهم . أعرضوا عنه ، وأشركوا به ماتخذوهم من الأنداد من دونه .

فهذا الحزب نوعان – كالمعطلة والمشركة – حزب إذا نزل بهم الضر لم يدعو الله ولم يتضرعوا إليه ، ولم يتوبوا إليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ . فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ

قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٢ ، ٤٣] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا آسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَايَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧٦] . وقال تعالى : ﴿ أَوَ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ؟ ثُم لَايَتُوبُونَ وَلَاهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة : ٢١] وحزب يتضرعون إليه فى حال الضراء ويتوبون إليه . فإذا كشفها عنهم : أعرضوا عنه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ١٢] ، وقال تعالى ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت : ٥١] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، وقال فى المشركين ماتقدم : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ . ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ .

[أهل الصبر والشكر]

٩١ – والممدوح : هو القسم الثالث ، وهم الذين يدعونه ، ويتوبون إليه ويثبتون على عبادته والتوبة إليه فى حال السراء . فيعبدونه ويطيعونه فى السراء والضراء . وهم من أهل الصبر والشكر ، كما ذكر ذلك عن أنبيائه عليهم السلام . قال تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً : فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ : أن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ، وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ، ثُمَّ أَنَابَ . قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [ص : ٣٤ ، ٣٥] ، وقال تعالى ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ؟ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ . قَالُوا لَاتَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ، وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ . إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ : أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ . قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى

نِعَاجِهِ ، وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ - وَقَلِيلٌ مَا هُمْ - وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ . فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص : ٢١ - ٢٥]
وقال تعالى عن آدم وحواء : ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا : أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ؟ وَأَقُلْ لَكُمَا : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ . قَالَا : رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٢ ، ٢٣]
وقال : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ . [البقرة : ٣٧]

[تفسير آية ﴿ وكأين من نبي قتل ﴾]

٩٢ - وقال تعالى عن المؤمنين الذين قتل نبيهم ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ [قراءة حفص « قاتل »] مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ . وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦ - ١٤٨] .

وقوله تعالى « قتل » أى النبى قتل . هذا أصح القولين .

وقوله « معه ربيون كثير » جملة فى موضع الخبر ، صفة للنبى - صفة بعد صفة - أى كم من نبى معه ربيون كثير قتل ، ولم يقتلوا معه ، فإنه كان يكون المعنى : أنه قتل وهم معه . والمقصود : أنه كان معه ربيون كثير ، وقتل فى الجملة أولئك الربيون ما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وماضعفوا وما استكانوا .

« والربيون » الجموع الكثيرة ، وهم الألوف الكثيرة .

وهذا المعنى : هو الذى يناسب سبب النزول ، وهو ماأصابهم يوم أحد لما قيل : « إن محمداً قد قتل » وقد قال قبل ذلك ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ : انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ وهى التى تلاها أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوم مات النبى ﷺ ، وقال : « من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حى لايموت » .

[مايحدث عند موت النبى]

٩٣ – فإنه عند قتل النبى أو موته تحصل فتنة عظيمة للناس – المؤمنين والكافرين – وتحصل ردة ونفاق ، لضعف قلوب أتباعه لموته ومايلقيه الشيطان فى قلوب الكافرين : إن هذا قد انقضى أمره ، ومابقى يقوم دينه ، وإنه لو كان نبياً لما قتل وغلب . ونحو ذلك . فأخبر الله تعالى : أنه كم من نبى قتل ؟

فإن بنى إسرائيل قتلوا كثيراً من الأنبياء ، والنبى معه ربيون كثير أتباع له ، وقد يكون قتله فى غير حرب ولا قتال ، بل يقتل وقد اتبعه ربيون كثير فما وهن المؤمنون لما أصابهم بقتله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين . ولكن استغفروا لذنوبهم التى بها تحصل المصائب – فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم – وسألوا الله أن يغفر لهم ، وأن يثبت أقدامهم فيثبتهم على الإيمان والجهاد لئلا يرتابوا ولا ينكلوا عن الجهاد . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِوَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] ، وسألوه أن ينصرهم على القوم الكافرين ، سألوا ربهم مايفعل لهم فى أنفسهم من التثبيت ، ومايعطيهم من عنده من النصر ؛ فإنه هو الناصر وحده ، وما النصر إلا من عند الله ، وكذا أنزل الملائكة عوناً لهم ؛ قال تعالى لما أنزل الملائكة : ﴿ وَماجَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ١٠] وقال تعالى : ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٨] وهذا مبسوط فى موضع آخر .

المقصود هنا : أنه لما كانت الحسنة من إحسانه تعالى ، والمصائب من نفس الإنسان – وإن كانت بقضاء الله وقدره – وجب على العبد أن يشكر ربه سبحانه ، وأن يستغفره من ذنوبه ، وأن لا يتوكل إلا عليه وحده ؛ فلا يأتى بالحسنات إلا هو ؛ فأوجب ذلك للعبد : توحيده ، والتوكل عليه وحده . والشكر له وحده ، والاستغفار من الذنوب .

[أدعية الرسول ﷺ جامعة لكل أمور التوحيد]

٩٤ – وهذه الأمور كان النبى ﷺ يجمعها فى الصلاة ، كما ثبت عنه فى

الصحيح : « أنه ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع ، يقول : ربنا ولك الحمد ، ملء السماء وملء الأرض ، وملء مابينهما ، وملء ماشئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ؛ أحق ماقال العبد ، وكلنا لك عبد » فهذا حمد ، وهو شكر لله تعالى . وبيان أن حمده أحق ماقاله العبد . ثم يقول بعد ذلك : « اللهم لامانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

وهذا تحقيق لوحدانيته : لتوحيد الربوبية . خلقاً ، وقدراً ، وبداية ، وهداية . هو المعطى المانع ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، ولتوحيد الإلٰهية – شرعاً وأمراً ، ونهياً – وهو أن العباد ، وإن كانوا يعطون ملكاً وعظمة ، وبختاً ورياسة فى الظاهر أو فى الباطن ، كأصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة « فلا ينفع ذا الجد منك الجد » أى لا ينجيه ولا يخلصه من سؤالك وحسابك حظه وعظمته وغناه .

ولهذا قال : « لاينفعه منك » ولم يقل : « لا ينفعه عندك » فإنه لو قيل ذلك : أوهم أنه لايتقرب به إليك ، لكن قد لايضره . فيقول صاحب الجد : إذا سلمت من العذاب فى الآخرة فما أبالى ، كالذين أوتوا النبوة والملك ، لهم ملك فى الدنيا وهم من السعداء ؛ فقد يظن ذو الجد – الذى لم يعمل بطاعة الله من بعده – أنه كذلك ؛ فقال « ولا ينفع ذا الجد منك » ضمن « ينفع » معنى « ينجى ويخلص » فبين أن جده لا ينجيه من العذاب ؛ بل يستحق بذنوبه مايستحقه أمثاله . ولا ينفعه جده منك ، فلا ينجيه ولا يخلصه .

[معنى « لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت »]

٩٥ – فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد ، وتحقيق قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وقوله : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود : ١٢٣] وقوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] وقوله : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا . رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل : ٨ ، ٩] .

فقوله : « لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت » توحيد الربوبية الذى يقتضى : أنه سبحانه : هو الذى يسأل ويدعى ، ويتوكل عليه .

وهو سبب لتوحيد الإلٰهية ، ودليل عليه ، كما يحتج به فى القرآن على المشركين .

فإن المشركين كانوا يقرون بهذا التوحيد – توحيد الربوبية – ومع هذا يشركون بالله . فيجعلون له أنداداً ، يحبونهم كحب الله . ويقولون : إنهم شفعاؤنا عنده ، وإنهم يتقربون بهم إليه . فيتخذونهم شفعاء وقرباناً ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ : هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ﴾ [يونس : ١٨] وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَانَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر : ٣] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَاحَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى ، وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَاناً آلِهَةً ؟ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُم ، وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٧ ، ٢٨] .

وهذا التوحيد : هو عبادة الله وحده لا شريك له . وأن لا نعبده إلا بما أحبه وما رضيه . وهو ماأمر به وشرعه على ألسن رسله – صلوات الله عليهم – فهو متضمن لطاعته وطاعة رسوله ، وموالاة أوليائه ، ومعاداة أعدائه ، وأن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد من كل ماسواهما .

وهو يتضمن : أن يحب الله حباً لايماثله حب ولا يساويه فيه غيره ، بل يقتضي : أن يكون رسوله ﷺ أحب إليه من نفسه .

فإذا كان الرسول – لأجل أنه رسول الله – يجب أن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه ، فكيف بربه سبحانه وتعالى ؟

وفى صحيح البخارى أن عمر قال : « يارسول الله ، والله إنك لأحب إليَّ من كل شيء ، إلا من نفسى . فقال : لا ياعمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك . قال : فوالذى بعثك بالحق ، إنك لأحب إليَّ من نفسى ، قال : الآن ياعمر » .

وقد قال تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٦] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُم وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا : أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤] .

فإن لم يكن الله ورسوله ، والجهاد فى سبيله : أحب إلى العبد من الأهل والمال – على اختلاف أنواعه – فإنه داخل تحت هذا الوعيد .

[توحيد الإلٓهية]

٩٦ – فهذا التوحيد – توحيد الإلٓهية – يتضمن فعل المأمور وترك المحظور .

ومن ذلك : الصبر على المقدور ، كما أن الأول يتضمن الإقرار بأنه لاخالق ولا رازق ، ولا معطى ولا مانع ، إلا الله وحده . فيقتضى : أن لا يسأل العبد غيره ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يستعين إلا به . كما قال تعالى فى النوعين : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وقال ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود : ١٢٣] .

وهذا التوحيد: هو الفارق بين الموحدين والمشركين . وعليه يقع الجزاء والثواب فى الأولى والآخرة ، فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين ، فإن الله لايغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

[توحيد الربوبية]

٩٧ – أما توحيد الربوبية : فقد أقرَّ به المشركون ، وكانوا يعبدون مع الله غيره ، يحبونهم كما يحبونه : فكان ذلك التوحيد – الذى هو توحيد الربوبية – حجة عليهم ، فإذا كان الله هو رب كل شىء ومليكه ، ولا خالق ولا رازق إلا هو . فلماذا يعبدون غيره معه ، وليس له عليهم خلق ولا رزق ، ولا بيده لهم منع ولا عطاء ، بل هو عبد مثلهم لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؟!

فإن قالوا « ليشفع » فقد قال الله : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ؟ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . فلا يشفع من له شفاعة – من الملائكة والنبيين – إلا بإذنه ، وأما قبورهم وما نصب عليهم من قباب وأنصاب ، أو تماثيلهم – التى مثلت على صورهم ، مجسدة أو مرموقة – فجعل الاستشفاع بها استشفاعاً بهم : فهذا باطل عقلا وشرعاً . فإنها لا شفاعة لها بحال ، ولا لسائر الأصنام التى عملت للكواكب والجن والصالحين ، وغيرهم .

[حقيقة الشفاعة]

٩٨ – وإذا كان الله لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى : فما بقى الشفعاء شركاء ، كشفاعة المخلوق عند المخلوق ، فإن المخلوق يشفع

عنده نظيره — أو من هو أعلى منه ، أو دونه — بدون إذن المشفوع إليه . ويقبل المشفوع إليه ، ولابد شفاعته : إما لرغبته إليه ، أو فيما عنده من قوة أو سبب ينفعه به أو يدفع عنه مايخشاه ، وإما لرهبته منه ، وإما لمحبته إياه ، وإما للمعارضة بينهما أو المعاونة ، وإما لغير ذلك من الأسباب .

وتكون شفاعة الشفيع : هى التى حركت إرادة المشفوع إليه وجعلته مريداً للشفاعة ، بعد أن لم يكن مريداً لها ، كأمر الآمر الذى يؤثر فى المأمور ، فيفعل ماأمره به بعد أن لم يكن مريداً ليفعله .

وكذلك سؤال المخلوق للمخلوق : فإنه قد يكون محركا له إلى فعل ما سأله .

فالشفيع : كما أنه شافع للطالب شفاعته فى الطلب ، فهو أيضاً قد شفع المشفوع إليه : فبشفاعته صار المشفوع إليه فاعلا للمطلوب . فقد شفع الطالب والمطلوب .

والله تعالى وتر ، لا يشفعه أحد . فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، فالأمر كله إليه وحده ، فلا شريك له بوجه ، ولهذا ذكر سبحانه نفى ذلك فى آية الكرسى ، التى فيها تقرير التوحيد . فقال : ﴿ لَهُ مَافِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ؟ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

وسيد الشفعاء ﷺ يوم القيامة ، إذا سجد وحمد ربه ، يقال له : « ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع . فيحد له حداً . فيدخلهم الجنة » فالأمر كله لله . كما قال : ﴿ قُلْ : إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] وقال لرسوله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] وقال : ﴿ أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

فإذا كان لايشفع عند الله أحدٌ إلا بإذنه فهو يأذن لمن يشاء ، ولكن يكرم الشفيع بقبول الشفاعة . كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه ماشاء » .

وإذا دعاه الداعى ، وشفع عنده الشفيع . فسمع الدعاء ، وقبل الشفاعة : لم

يكن هذا مؤثراً فيه ، كما يؤثر المخلوق فى المخلوق ؛ فإنه سبحانه هو الذى جعل هذا يدعو وهذا يشفع ، وهو الخالق لأفعال العباد ، فهو الذى وفق العبد للتوبة ثم قبلها ، وهو الذى وفقه للعمل ، ثم أثابه عليه ، وهو الذى وفقه للدعاء ، ثم أجابه ، فما يؤثر فيه شىء من المخلوقات ، بل هو سبحانه الذى جعل مايفعله سبباً لما يفعله .

وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر ، وأن الله خالق كل شىء وأنه ماشاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يكون شىء إلا بمشيئته ، وهو خالق أفعال العباد ، كما هو خالق سائر المخلوقات . قال يحيى بن سعيد القطان : مازلت أسمع أصحابنا يقولون : إن الله خالق أفعال العباد .

ولكن هذا يناقض قول القدرية ، فإنهم إذا جعلوا العبد هو الذى يحدث ، ويخلق أفعاله ، بدون مشيئة الله وخلقه : لزمهم أن يكون العبد قد جعل ربه فاعلا لما لم يكن فاعلا له ، فبدعائه جعله مجيباً له ، وبتوبته جعله قابلا للتوبة ، وبشفاعته جعله قابلا للشفاعة .

[معنى « إذن الله »]

٩٩ — وهذا يشبه قول من جعل المخلوق يشفع عند الله بغير إذنه . فإن « الإذن » نوعان . إذن بمعنى المشيئة والخلق ، وإذن بمعنى الإباحة والإجازة .

فمن الأول : قوله فى السحر : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [البقرة : ١٠٢] فإن ذلك بمشيئة الله ، وقدرته ، وإلا فهو لم يبح السحر .

والقدرية تنكر هذا « الإذن » . وحقيقة قولهم : إن السحر يضرّ بدون إذن الله . وكذلك قوله : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ ﴾ [آل عمران : ١٦٦] فإن الذى أصابهم من القتل والجراح ، والتمثيل ، والهزيمة : إذا كان بإذنه فهو خالق لأفعال الكفار ولأفعال المؤمنين .

والنوع الثانى : قوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ ﴾ [الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦] وقوله : ﴿ مَاقَطَعْتُم مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ ﴾ [الحشر : ٥] فإن هذا يتضمن إباحته لذلك ، وإجازته له ، ورفع الجناح والحرج عن فاعله ، مع كونه بمشيئته وقضائه .

فقوله : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ؟ ﴾ هو هذا الإذن الكائن بقدره وشرعه . ولم يرد بمجرد المشيئة والقدر . فإن السحر وانتصار الكفار على المؤمنين كان بذلك الإذن .

فمن جعل العباد يفعلون أفعالهم بدون أن يكون الله خالقاً لها ، وقادراً عليها ، ومشيئاً لها ، فعنده : كل شافع وداع قد فعل مافعل بدون خلق الله وقدرته ، وإن كان قد أباح الشفاعة .

وأما الكفر ، والسحر ، وقتال الكفار : فهو عندهم بغير إذنه ، لا هذا الإذن ولا هذا الإذن ، فإنه لم يبح ذلك باتفاق المسلمين ، وعندهم : أنه لم يشأه ، ولم يخلقه ، بل كان بدون مشيئته وخلقه .

والمشركون المقرُّون بالقدر ، يقولون : إن الشفعاء يشفعون بالإذن القدرى ، وإن لم يأذن لهم إباحة وجوازاً .

ومن كان مكذباً بالقدر – مثل كثير من النصارى – يقولون : إن شفاعة الشفعاء بغير إذن ، لا قدرى ولا شرعى .

والقدرية من المسلمين يقولون : يشفعون بغير إذن قدرى .

ومن سأل الله بغير إذنه الشرعى : فقد شفع عنده بغير إذن قدرى ولا شرعى .

فالداعى المأذون له فى الدعاء : مؤثر فى الله عندهم ، ولكن بإباحته .

والداعى غير المأذون له : إذا أجاب دعاه ، فقد أثر فيه عندهم ، لا بهذا الإذن ولا بهذا الإذن ، كدعاء بلعام بن باعوراء وغيره . والله تعالى يقول : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ؟ ﴾ .

فإن قيل : فمن الشفعاء من يشفع بدون إذن الله الشرعى ، وإن كان خالقاً لفعله – كشفاعة نوح لابنه ، وشفاعة إبراهيم لأبيه ، وشفاعة النبى ﷺ لعبد الله ابن أُبىّ بن سلول ، حين صلى عليه بعد موته وقوله : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ » قد قلتم : إنه يعم النوعين ، فإنه لو أراد الإذن القدرى : لكان كل شفاعة داخلة فى ذلك . كما يدخل فى ذلك كل كفر وسحر . ولم يكن فرق بين مايكون

بإذنه ، وما لا يكون بإذنه . ولو أراد الإذن الشرعى فقط : لزم قول القدرية ، وهؤلاء قد شفعوا بغير إذن شرعى ؟

[الشفاعة المقبولة]

١٠٠ - قيل : المنفى من الشفاعة بلا إذن : هى الشفاعة التامة ، وهى المقبولة ، كما فى قول المصلى « سمع الله لمن حمده » أى استجاب له : وكما فى قوله تعالى : ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢] وقوله : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٥] وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق : ٤٥] ونحو ذلك .

فإذا الهدى ، والإنذار ، والتذكير ، والتعليم . لابد فيه من قبول المتعلم . فإذا تعلم حصل له التعليم المقصود ، وإلا قيل : علمته فلم يتعلم : كما قيل : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودَ : فَهَدَيْنَاهُمْ . فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت : ١٧] فكذلك الشفاعة .

فالشفاعة مقصودها قبول المشفوع إليه : وهى الشفاعة التامة . فهذه هى التى لاتكون إلا بإذنه ، وأما إذا شفع شفيع فلم تقبل شفاعته : كانت كعدمها ، وكان على صاحبها التوبة والاستغفار منها ، كما قال نوح : ﴿ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَالَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود : ٤٧] وكما نهى الله النبى ﷺ عن الصلاة على المنافقين . وقال له : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُم كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨٤] وقال له : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِم أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَم تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ [المنافقون : ٦] ولهذا قال على لسان المشركين : ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٠٠ ، ١٠١] .

فالشفاعة المطلوبة : هى شفاعة المطاع الذى تقبل شفاعته ، وهذه ليست لأحد عند الله إلا بإذنه ، قدراً وشرعاً فلا بد أن يأذن فيها ، ولا بد أن يجعل العبد شافعاً ، فهو الخالق لفعله ، والمبيح له ، كما فى كالداعى ، هو الذى أمره بالدعاء ، وهو الذى يجعل الداعى داعياً ، فالأمر كله لله ، خلقاً وأمراً ، كما قال ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

وقد روى فى حديث - ذكره ابن أبى حاتم وغيره - أنه قال : « فمن يثق به ، فليدعه » أى فلم يبق لغيره لا خلق ولا أمر .

[الشفاعة المنفية]

١٠١ – ولما كان المراد بالشفاعة المنفية : هى الشفاعة المطلقة وهى المقصود بالشفاعة وهى المقبولة ، بخلاف المردودة : فإن أحداً لايريدها ، لا الشافع ولا المشفوع له ، ولا المشفوع إليه ولو علم الشافع والمشفوع له ، أنها ترد : لم يفعلوها والشفاعة المقبولة : هى النافعة . بيَّن ذلك فى مثل قوله : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ : ٢٣] وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَاتَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلًا ﴾ [طه : ١٠٩] فنفى الشفاعة المطلقة ، وبين أن الشفاعة لاتنفع عنده إلا لمن أذن له ، وهو الإذن الشرعى ، بمعنى : أباح له ذلك ، وأجازه . كما قال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُوا ﴾ [الحج : ٣٩] وقوله : ﴿ لَاتَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِىِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] وقوله : ﴿ لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النور : ٥٨] ونحو ذلك .

وقوله « إلا لمن أذن له » هو إذن للمشفوع له ، فلا يأذن فى شفاعة مطلقة لأحد ، بل إنما يأذن فى أن يشفعوا لمن أذن لهم فى الشفاعة فيه ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً . يَوْمَئِذٍ لَاتَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلًا ﴾ [طه : ١٠٨ ، ١٠٩] وفيه قولان .

قيل : إلا شفاعة من أذن له الرحمن .

وقيل : لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ، فهو الذى تنفعه الشفاعة .

وهذا هو الذى يذكره طائفة من المفسرين ، لايذكرون غيره ، لأنه لم يقل « لاتنفع إلا من أذن له » ولا قال « لاتنفع الشفاعة إلا فيمن أذن له » بل قال : « لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له » فهى لا تنفع ، ولا ينتفع بها ، ولا تكون نافعة إلا للمأذون لهم . كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ : ٢٣] .

ولا يقال : لاتنفع إلا لشفيع مأذون له ، بل لو أريد هذا ، لقيل : لاتنفع

الشفاعة عنده إلا من أذن له . وإنما قال « لمن أذن له » وهو المشفوع له ، الذى تنفعه الشفاعة .

وقوله « حتى إذا فزع عن قلوبهم » لم يعد إلى « الشفعاء » بل عاد إلى المذكورين فى قوله « ومالهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير » ثم قال « وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ » ثم بيَّن أن هذا منتفٍ « حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا : الْحَقَّ » فلا يعلمون ماذا قال ، حتى يفزع عن قلوبهم فكيف يشفعون بلا إذنه ؟

وهو سبحانه إذا أذن للمشفوع له فقد أذن للشافع .

فهذا الإذن هو الإذن المطلق ، بخلاف ماإذا أذن للشافع فقط ، فإنه لايلزم أن يكون قد أذن للمشفوع له ، إذ قد يأذن له إذناً خاصاً .

وهكذا قال غير واحد من المفسرين . قالوا : وهذا يدل على أن الشفاعة لاتنفع إلا المؤمنين ، وكذلك قال السلف فى هذه الآية .

قال قتادة فى قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ [طه : ١٠٩] قال : كان أهل العلم يقولون : إن المقام المحمود الذى قال الله تعالى عنه : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾ [الإسراء ٧٩] هو شفاعته يوم القيامة . وقوله « إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » إن الله يُشَفِّعُ المؤمنين بعضهم فى بعض .

قال البغوى : « إلا من أذن له الرحمن » أذن الله له أن يشفع له « ورضى له قولا » أى ورضى قوله . قال ابن عباس : يعنى قال « لا إله إلا الله » قال البغوى : فهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمن .

وقد ذكروا القولين فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ وقدم طائفة هناك : أن المستثنى هو الشافع ، دون المشفوع له ، بخلاف ماقدموه هنا .

منهم البغوى فإنه لم يذكر هنا فى الاستثناء إلى المشفوع له . وقال هناك : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ فى الشفاعة ، قاله تكذيباً لهم ، حيث

قالوا : ﴿ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ﴾ [يونس : ١٨] قال : ويجوز أن يكون المعنى : إلا لمن أذن له أن يشفع له .

وكذلك ذكروا القولين فى قوله : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِين يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ، إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالحَقِّ ﴾ [الزخرف : ٨٦] . وسنتكلم على هذه الآية إن شاء الله تعالى ، ونتبين أن الاستثناء فيها يعم الطائفتين ، وأنه منقطع .

ومعنى هاتين الآيتين مثل معنى تلك الآية . وهو يعم النوعين .

وذلك : أنه سبحانه قال : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ .

« والشفاعة » مصدر شفع شفاعة . والمصدر يضاف إلى الفاعل تارة وإلى محل الفعل تارة . ويماثله الذى يسمى لفظة « المفعول به » تارة ، كما يقال : أعجبنى دق الثوب ودق القصار . وذلك مثل لفظ « العلم » يضاف تارة إلى العلم ، وتارة إلى المعلوم . فالأول كقوله : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وقوله : ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [النساء : ١٦٦] وقوله : ﴿ أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ ﴾ [هود : ١٤] ونحو ذلك .

والثانى : كقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ [لقمان : ٣٤] فالساعة هنا معلومة ، لا عالمة . وقوله حين قال فرعون : ﴿ فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى ؟ ﴾ قال موسى : ﴿ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ [طه : ٥١] ، ومثل هذا كثير .

فالشفاعة مصدر لا بد لها من شافع ومشفوع له .

والشفاعة : تعم شفاعة كل شافع ، وكل شفاعة لمشفوع له .

فإذا قال : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ ﴾ نفى النوعين : شفاعة الشفعاء ، والشفاعة للمذنبين . فقوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ ﴾ يتناول النوعين : من أذن له الرحمن ورضى له قولا من الشفعاء . ومن أذن له الرحمن ورضى له قولا من المشفوع له . وهى تنفع المشفوع له ، فتخلصه من العذاب ، وتنفع الشافع ، فتقبل منه ، ويكرم بقبولها ، ويثاب عليه .

والشفاعة يومئذ لاتنفع لاشافعاً ولا مشفوعاً له ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ [النبأ : ٣٨] ، فهذا الصنف المأذون لهم ، المرضى قولهم : هم الذين تحصل لهم نفع الشفاعة ، وهذا موافق لسائر الآيات .

فإنه تارة يشترط فى الشفاعة إذنه . كقوله : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ؟ .

وتارة يشترط فيها الشهادة بالحق . كقوله : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ ، ثم قال : ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وهنا اشترط الأمرين : أن يأذن له الرحمن ، وأن يقول صوابا . والمستثنى يتناول مصدر الفاعل والمفعول ، كما تقول : لاينفع الزرع إلا فى وقته . فهو يتناول زرع الحارث ، وزرع الأرض ، لكن هنا قال : « إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ » والاستثناء مفرغ . فإنه لم يتقدم قبل هذا من يستثنى منه هذا . وإنما قال : ﴿ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ فإذا لم يكن فى الكلام حذف ، كان المعنى : لاتنفع الشفاعة إلا هذا النوع ، فإنهم تنفعهم الشفاعة ، ويكون المعنى : أنها تنفع الشافع والمشفوع له .

وإن جعل فيه حذف — تقديره : لاتنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن — كان المصدر مضافاً إلى النوعين ، كل واحد بحسبه ، يضاف إلى بعضهم لكونه شافعاً ، وإلى بعضهم لكونه مشفوعاً له ، ويكون هذا كقوله : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ ﴾ [البقرة : ١٧٧] أى من يؤمن . ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ ﴾ [البقرة : ١٧١] أى مثل داعى الذين كفروا كمثل الناعق ، أو مثل الذين كفروا كمثل منعوق به ، أى الذى ينعق به ، والمعنى فى ذلك كله ظاهر معلوم .

فلهذا كان من أفصح الكلام : إيجازه دون الإطناب فيه .

وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَاتَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ ﴾ إذا كان من هذا الباب ، لم يحتج : أن الشافع تنفعه الشفاعة ، وإن لم يكرمه ، كان الشافع ممن تنفعه الشفاعة .

وفى الآية الأخرى ﴿ وَلَاتَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أُذِنَ لَهُ ﴾ من هؤلاء وهؤلاء .

لكن قد يقال : التقدير : لاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له أن يشفع فيه

فيؤذن لغيره أن يشفع فيه فيكون الإذن للطائفتين ، والنفع للمشفوع له ، كأحد الوجهين ، أو ولا تنفع إلا لمن أذن له من هؤلاء وهؤلاء ، فكما أن الإذن للطائفتين ، فالنفع أيضاً للطائفتين . فالشافع ينتفع بالشفاعة ، وقد يكون انتفاعه بها أعظم من انتفاع المشفوع له ، ولهذا قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه ماشاء » .

ولهذا كان من أعظم مايكرم الله به عبده محمداً ﷺ : هو الشفاعة التى يختص بها ، وهى المقام المحمود الذى يحمده به الأولون والآخرون .

وعلى هذا لاتحتاج الآية إلى حذف ، بل يكون معناه : يومئذ لاتنفع الشفاعة لا شافعاً ولا مشفوعاً إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا .

ولذلك جاء فى الصحيح : أن النبى ﷺ قال : « يابنى عبد مناف ، لا أملك لكم من الله من شىء . ياصفية عمة رسول الله ﷺ لاأملك لك من الله من شىء . ياعباس عم رسول الله ، لا أملك لك من الله من شىء » .

وفى الصحيح أيضاً : « لا ألفينّ أحدكم يأتى يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء أو شاة لها يعار ، أو رقاع تخفق . فيقول : أغثنى ، أغثنى ، فأقول : قد أبلغتك ، لا أملك لك من الله من شىء » .

فيعلم من هذا : أن قوله : « ولا يملكون من دونه الشفاعة » و « لايملكون منه خطاباً » على مقتضاه . وأن قوله فى الآية : « لايملكون منه » كقوله ﷺ : « لا أملك لكم من الله من شىء » وهو كقول إبراهيم لأبيه : ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَىْءٍ ﴾ [الممتحنة : ٤].

وهذه الآية تشبه قوله تعالى : ﴿ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَابَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَايَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً . يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالمَلَائِكَةُ صَفًّا لَايَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ [النبأ : ٣٧ ، ٣٨] فإن هذا مثل قوله : « يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » ففى الموضعين : اشترط إذنه ، فهناك ذكر « القول الصواب » وهنا ذكر « أن يرضى قوله » ومن قال الصواب رضى الله قوله ، فإن الله إنما يرضى بالصواب .

[الشفاعة لله]

١٠٢ – وقد ذكروا فى تلك الآية قولين :

أحدهما : أنه الشفاعة أيضاً ، كما قال ابن السائب : لايملكون شفاعة إلا بإذنه .

والثانى : لايقدر الخلق على أن يكلموا الرب إلا بإذنه . قال مقاتل : كذلك قال مجاهد « لايملكون منه خطاباً » قال : كلاماً . هذا من تفسيره الثابت عنه وهو من أعلم – أو أعلم – التابعين بالتفسير .

قال الثورى : إذا جاءك التفسير عن مجاهد ، فحسبك به . وقال : عرضت المصحف على ابن عباس : أقفه عند كل آية وأسأله عنها . وعليه اعتمد الشافعى وأحمد والبخارى فى صحيحه .

وهذا يتناول « الشفاعة » أيضاً .

وفى قوله « لايملكون منه خطاباً » لم يذكر استثناء . فإن أحداً لايملك من الله خطاباً مطلقاً . إذ المخلوق لايملك شيئاً يشارك فيه الخالق . كما قد ذكرناه فى قوله : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » أن هذا عام مطلق . فإن أحداً – ممن يدعى من دونه – لايملك الشفاعة بحال ، ولكن الله إذا أذن لهم شفعوا من غير أن يكون ذلك مملوكا لهم . وكذلك قوله : « لا يملكون منه خطابا » هذا قول السلف وجمهور المفسرين .

وقال بعضهم : هؤلاء هم الكفار . لا يملكون مخاطبة الله فى ذلك اليوم . قال ابن عطية : قوله : « لا يملكون » : الضمير للكفار . أى لا يملكون – من إفضاله وإكماله ، أن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها . وهذا مبتدع . وهو خطأ محض .

والصحيح : قول الجمهور والسلف : أن هذا عام ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً ﴾ [طه : ١٠٨] وفى حديث التجلى الذى فى الصحيح – لما ذكر مرورهم على الصراط – قال ﷺ : « ولا يتكلم أحد إلا الرسل . ودعوى الرسل . اللهم سلم سلم » فهذا فى وقت المرور على

الصراط . وهو بعد الحساب والميزان . فكيف بما قبل ذلك ؟

وقد طلبت الشفاعة من أكابر الرسل ، وأولى العزم . وكل يقول : « إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله . ولن يغضب بعده مثله . وإنى فعلت كذا وكذا . نفسى ، نفسى ، نفسى » فإذا كان هؤلاء لايتقدمون إلى مخاطبة الله تعالى بالشفاعة فكيف بغيرهم ؟

وأيضاً فإن هذه الآية مذكورة بعد ذكر المتقين وأهل الجنة ، وبعد أن ذكر الكافرين فقال : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا . حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا . وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً ، وَكَأْساً دِهَاقاً . لَايَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً . جزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً . رَبٌّ السَّمَوَاتِ والأرضِ وَمَابَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ﴾ [النبأ : ٣١ - ٣٧] . ثم قال : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالمَلَائِكَةُ صَفًّا . لَايَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ : صَوَاباً ﴾ فقال أخبر : أن « الروح والملائكة » يقومون صفاً ، لايتكلمون . وهذا هو تحقيق قوله « لا يملكون منه خطابا » والعرب تقول « ماأملك من أمر فلان أو من فلان شيئاً » أى لاأقدر من أمره على شيء . وغاية مايقدر عليه الإنسان من أمر غيره : خطابه ولو بالسؤال .

فهم فى ذلك الموطن لايملكون من الله شيئاً ، ولا الخطاب . فإنه لايتكلم أحد إلا بإذنه . ولا يتكلم إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا . قال تعالى : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ : لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ . وَمَاأَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الممتحنة : ٤] فقد أخبر الخليل : أنه لايملك لأبيه من الله من شيء . فكيف غيره ؟

وقال مجاهد أيضاً ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ قال حقاً فى الدنيا وعملا به – رواه – والذى قبله – عبد بن حميد . وروى عن عكرمة : ﴿ وقال صواباً ﴾ قال : الصواب قول : لا إله إلا الله .

فعلى قول مجاهد : يكون المستثنى : من أتى بالكلم الطيب والعمل الصالح .

وقوله فى سورة طه : ﴿ لَاتَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ ، فإذا جعلت هذه مثل تلك : فتكون الشفاعة هى الشفاعة المطلقة . وهى الشفاعة فى الحسنات ودخول الجنة ، كما فى الصحيحين : « أن الناس يهتمون يوم

القيامة . فيقولون : لو استشفعنا على ربنا ، حتى يرحمنا من مقامنا هذا ؟ » فهذا طلب الشفاعة للفصل بينهم .

وفى حديث الشفاعة : « أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن » فهذه شفاعة أهل الجنة . ولهذا قيل : إن هاتين الشفاعتين مختصتان بمحمد ﷺ ، ويشفع غيره فى العصاة .

فقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ يدخل فيه الشفاعة فى أهل الموقف عموماً ، وفى أهل الجنة ، وفى المستحقين للعذاب . وهو سبحانه فى هذه وتلك : لم يذكر العمل . إنما قال : « وقال صواباً » وقال : « ورضى له قولا » لكن قد دل الدليل على أن « القول الصواب المرضى » لايكون صاحبه محموداً إلا مع العمل الصالح ؛ لكن نفس القول مرضى . فقد قال الله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر : ١٠] .

وذكر البغوى وأبو الفرج ابن الجوزى وغيرهما فى قوله : « ولايملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » قولين . أحدهما : أن المستثنى هو الشافع : ومحل « من » الرفع . والثانى : هو المشفوع له .

قال أبو الفرج : فى معنى الآية قولان : أحدهما : أنه أراد بـ « الذين يدعون من دونه » آلهتهم . ثم استثنى عيسى وعزيراً والملائكة . فقال : « إلا من شهد بالحق » وهو شهادة أن لا إله إلا الله « وهم يعلمون » بقلوبهم ماشهدوا به بألسنتهم . قال : وهذا مذهب الأكثرين ، منهم قتادة .

والثانى : أن المراد بـ « الذين يدعون » عيسى وعزيراً والملائكة ، الذين عبدهم المشركون ، لايملك هؤلاء الشفاعة لأحد « إلا من شهد بالحق » وهى كلمة الإخلاص « وهم يعلمون » أن الله خلق عيسى وعزيرا والملائكة . وهذا مذهب قوم ، منهم مجاهد .

وقال البغوى : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق » هم عيسى وعزير والملائكة ، فإنهم عبدوا من دون الله . ولهم الشفاعة وعلى هذا تكون « من » فى محل رفع . وقيل « من » فى محل خفض ، وأراد بالذين يدعون :

عيسى وعزيراً والملائكة ، يعنى أنهم لايملكون الشفاعة إلا لمن شهد بالحق قال : والأول أصح .

قلت : قد ذكر جماعة قول مجاهد وقتادة ، منهم ابن أبي حاتم . روى بإسناده المعروف عن مجاهد – على شرط الصحيح – عن مجاهد قوله : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ عيسى وعزيراً والملائكة ، يقول : لايشفع عيسى وعزير والملائكة « إلا من شهد بالحق » يعلم الحق . هذا لفظه . جعل « شفع » متعدياً بنفسه وكذلك لفظ .. .. .. [(١)] .

وعلى هذا فيكون منصوباً ، لايكون مخفوضا ، كما قاله البغوى . فإن الحرف الخافض إذا حذف انتصب الاسم . ويكون على هذا يقال : شفعته ، وشفعت له ، كما يقال : نصحته ، ونصحت له . « شفع » أى صار شفيعاً للطالب . أى لايشفعون طالباً ولا يعيبون طالباً « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » أن الله ربهم .

وروى بإسناده عن قتادة : « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » الملائكة وعيسى وعزير ؛ أى أنهم قد عبدوا من دون الله ، ولهم شفاعة عند الله ومنزلة .

قلت : كلا القولين معناه صحيح . ولكن التحقيق فى تفسير الآية : أن الاستثناء منقطع . ولا يملك أحد من دون الله الشفاعة مطلقاً : لايستثنى من ذلك أحد عند الله . فإنه لم يقل : ولايشفع أحد ، ولا قال : لايشفع لأحد ، بل قال : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » وكل من دُعِىَ من دون الله لايملك الشفاعة ألبتة .

والشفاعة بإذن ليست مختصة بمن عبد من دون الله .

وسيد الشفعاء ﷺ لم يعبد كما عبد المسيح ، وهو – مع هذا – له شفاعة ، ليست لغيره ، فلا يحسن أن تثبت الشفاعة لمن دعى من دون الله دون من لم يدع .

فمن جعل الاستثناء متصلا ، فإن معنى كلامه : أن من دعى من دون الله لايملك الشفاعة ، إلا أن يشهد بالحق ، وهو يعلم ، أو لايشفع إلا لمن شهد بالحق وهو يعلم ، ويبقى الذين لم يدعوا من دون الله ، لم تذكر شفاعتهم لأحد . وهذا المعنى

---

(١) بياض بالأصل قدر أربع كلمات .

لايليق بالقرآن ولا يناسبه ، وسبب نزول الآية يبطله أيضاً .

[معنى : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾]

١٠٣ - وأيضاً فقوله : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ يتناول كل معبود من دونه . ويدخل فى ذلك الأصنام ، فإنهم كانوا يقولون : هم يشفعون لنا . قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَايَنْفَعُهُمْ - وَيَقُولُونَ : هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ؟ قُلْ : أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَايَعْلَمُ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ ؟ ﴾ [يونس : ١٨] .

فإذا قيل : إنه استثنى الملائكة والأنبياء ، كان فى هذا إطماع لمن عندهم أن معبوديهم من دون الله يشفعون لهم ، وهذا مما يبين فساد القول المذكور عن قتادة .

فإنه إذا كان المعنى : أن المعبودين لايشفعون إلا إذا كانوا ملائكة أو أنبياء . كان فى هذا إثبات شفاعة المعبودين لمن عبدوهم ، إذا كانوا صالحين ، والقرآن كله يبطل هذا المعنى . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَم مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمٰوَاتِ لَاتُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم : ٢٦] وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ ؛ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَولِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَابَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦ - ٢٨] فبين أنهم لايشفعون إلا لمن ارتضى الرب ، فعلم : أنه لابد أن يؤذن لهم فيمن يشفعون فيه ، وأنهم لايؤذن لهم إذن مطلق .

وأيضاً فإن فى القرآن : إذا نفى الشفاعة من دونه : نفاها مطلقاً ، فإن قوله « من دونه » إما أن يكون متصلا بقوله « يملكون » أو بقوله « يدعون » أو بهما . فالتقدير : لايملك الذين يدعونهم الشفاعة من دونه . أو لايملك الذين يدعونهم من دونه أن يشفعوا ، وهذا أظهر ، لأنه قال : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » فأخر « الشفاعة » وقدّم « من دونه » .

ومثل هذا كثير فى القرآن « يدعون من دون الله » و « يعبدون من دون الله » كقوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ [يونس : ١٨] وقوله : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ [يونس : ١٠٦] .

بخلاف ما إذا قيل : لايملك الذين يدعون الشفاعة من دونه . فإن هذا لا نظير له فى القرآن ، واللفظ المستعمل فى هذا أن يقال : لايملك الذين يدعون الشفاعة إلا بإذنه ، أو لمن ارتضى ، ونحو ذلك ، لايقال فى هذا المعنى « من دونه » فإن الشفاعة هى من عنده ، فكيف تكون من دونه ؟ لكن قد تكون بإذنه ، وقد تكون بغير إذنه .

وأيضاً ، فإذا قيل « الذين يدعون » مطلقا . دخل فيه الرب تعالى : فإنهم كانوا يدعون الله ، ويدعون معه غيره ، ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ [الفرقان : ٦٨] .

والتقدير الثالث : لايملك الذين يدعون من دونه الشفاعة من دونه ، وهذا أجود من الذى قبله ، ولكن يَرِدُ عليه مايرد على الأول .

[من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟]

١٠٤ – ومما يضعفهما : أن « الشفاعة » لم تذكر بعدها صلة لها ، بل قال : ﴿ لَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ فنفى ملكهم الشفاعة مطلقاً . وهذا هو الصواب ، وأن كل من دعى من دون الله : لايملك الشفاعة ، فإن المالك للشيء : هو الذى يتصرف فيه بمشيئته وقدرته ، والرب تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، فلا يملك أحد من المخلوقين الشفاعة بحال . ولا يقال فى هذا « إلا بإذنه » إنما يقال ذلك فى الفعل ، فيقال : ﴿ مَنْ ذا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ .

وأما فى الملك : فلا يمكن أن يكون غيره مالكا لها ؛ فلا يملك مخلوق الشفاعة بحال ، ولا يتصور أن يكون نبى فمن دونه مالكا لها ، بل هذا ممتنع ، كما يمتنع أن يكون خالقاً ورباً ، هذا كما قال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ، لَا يَمْلِكُون مِثْقَال ذَرَّةٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَلَا فِى الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ : ٢٢] فنفى الملك مطلقاً ، ثم قال : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ فنفى نفع الشفاعة إلا لمن استثناه . لم يثبت ، أن مخلوقاً يملك الشفاعة ، بل هو سبحانه له الملك وله الحمد . لا شريك له فى الملك ، قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً . الَّذِى لَهُ

مُلْكُ السَّموَاتِ والأرضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : ١ ، ٢] .

ولهذا – لما نفى الشفعاء من دونه – نفاهم نفياً مطلقاً بغير استثناء . وإنما يقع الاستثناء : إذ لم يقيدهم بأنهم من دونه . كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ [الأنعام : ٥١] وكما قال تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ [الأنعام : ٧٠] وكما قال تعالى : ﴿ مَالَكُمْ مِنْ دُونِه مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ [السجدة : ٤] فلما قال « من دونهِ » نفى الشفاعة مطلقاً . وإذ ذكر « بإذنه » لم يقل « من دونه » كقوله : ﴿ مَنْ ذَا الذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بإِذْنِهِ ؟ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وقوله : ﴿ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ [يونس : ٣] .

[القرآن : متشابه ومثانى]

١٠٥ – فمن تدبر القرآن ، تبين له أنه كما قال تعالى : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً ، مَثَانِيَ ﴾ [الزمر : ٢٣] يشبه بعضه بعضاً ، ويصدق بعضه بعضاً . ليس بمختلف ولا بمتناقض ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ : لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً ﴾ [النساء : ٨٢] .

وهو « مثانى » يثنى الله فيه الأقسام ، ويستوفيها .

والحقائق : إما متماثلة ، وهو « المتشابه » وإما مماثلة . وهى : الأصناف والأقسام والأنواع . وهى « المثانى » .

و « التثنية » يراد بها : جنس التعديد ، من غير اقتصار على اثنين فقط . كما فى قوله تعالى : ﴿ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ [الملك : ٤] يراد به : مطلق العدد كما تقول : قلت له مرة بعد مرة . تريد جنس العدد . وتقول : هو يقول كذا ، ويقول كذا : وإن كان قد قال مرات ، كقول حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه : « جعل يقول بين السجدتين : رب اغفر لى . رب اغفر لى » لم يرد : أن هذا قاله مرتين فقط ، كما يظنه بعض الناس الغالطين . بل يريد : أنه جعل يثنى هذا القول ، ويعدده ، ويكرره ، كما كان يثنى لفظ التسبيح .

وقد قال حذيفة رضى الله عنه فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم : « إنه

ركع نحواً من قيامه ، يقول فى ركوعه : سبحان ربى العظيم ، سبحان ربى العظيم » وذكر : « أنه سجد نحواً من قيامه ، ويقول فى سجوده : رب اغفر لى . رب اغفر لى » .

وقد صرح فى الحديث الصحيح : « أنه أطال الركوع والسجود بقدر البقرة والنساء وآل عمران » فإنه قام بهذه السور كلها . وذكر « أنه كان يقول : سبحان ربى العظيم ، سبحان ربى العظيم . سبحان ربى الأعلى ، سبحان ربى الأعلى » .

فعلم أنه أراد بتثنية اللفظ : جنس التعداد والتكرار ، والاقتصار على مرتين . فإن « الاثنين » أول العدد الكثير . فذكر أول الأعداد ، يعنى أنه عدد هذا اللفظ لم يقتصر على مرة واحدة . فالتثنية التعديد ، والتعديد يكون للأقسام المختلفة .

وليس فى القرآن تكرار محض ، بل لا بد من فوائد فى كل خطاب .

فـ « المتشابه » فى النظائر المتماثلة . و « المثانى » فى الأنواع ، وتكون التثنية فى المتشابه ، أى هذا المعنى قد ثنى فى القرآن لفوائد أخر .

فـ « ـالمثانى » تَعُمُّ هذا وهذا . وفاتحة الكتاب : هى « السبع المثانى » لتضمنها هذا وهذا . وبسط هذا له موضع آخر .

[الشفاعة لأهل : لا إله إلا الله]

١٠٦ – والمقصود هنا : أن قوله : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ قد تم الكلام هنا . فلا يملك أحد من المعبودين من دون الله الشفاعة ألبتة : ثم استثنى « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » فهذا استثناء منقطع . والمنقطع يكون بالمعنى المشترك بين المذكورين . فلما نفى ملكهم الشفاعة ، وبقيت الشفاعة بلا مالك لها .

كأنه قد قيل : فإذا لم يملكوها ، هل يشفعون فى أحد ؟ فقال : نعم ، « من شهد بالحق وهم يعلمون » .

وهذا يتناول الشافع والمشفوع له . فلا يشفع إلا من شهد بالحق وهم يعلمون . فالملائكة والأنبياء والصالحون – وإن كانوا لايملكون الشفاعة – لكن إذا

أذن الرب لهم شفعوا . وهم لايؤذن لهم فى الشفاعة للمؤمنين ، الذين يشهدون أن لا إله إلا الله : فيشهدون بالحق وهم يعلمون . لايشفعون لمن قال هذه الكلمة تقليداً للآباء والشيوخ . كما جاء الحديث الصحيح : أن الرجل يسأل فى قبره « ماتقول فى هذا الرجل ؟ فأما المؤمن ، فيقول : هو عبد الله ورسوله . جاءنا بالبينات والهدىٰ . وأما المرتاب ، فيقول : هاه هاه ، لاأدرى . سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته » فلهذا قال : ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقد تقدم قول ابن عباس : يعنى من قال « لا إله إلا الله » يعنى : خالصاً من قلبه . والأحاديث الصحيحة الواردة فى الشفاعة كلها تبين : أن الشفاعة إنما تكون فى أهل « لا إله إلا الله » .

وقد ثبت فى صحيح البخارى : أن أبا هريرة قال لرسول الله ﷺ : « من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : ياأبا هريرة ، لقد ظننت أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أولى منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة : من قال : « لا إله إلا الله » خالصاً من قبل نفسه » .

فبيَّن أن المخلص لها من قبل نفسه : هو أسعد بشفاعته ﷺ من غيره ممن يقولها بلسانه ، وتكذبها أقواله وأعماله .

فهؤلاء هم الذين شهدوا بالحق ، شهدوا « أن لا إله إلا الله » كما شهد الله لنفسه بذلك وملائكته وأولو العلم : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلَائِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

فإذا شهدوا — وهم يعلمون — كانوا من أهل الشفاعة ، شافعين ، ومشفوعا لهم ، فإن المؤمنين أهل التوحيد يشفع بعضهم فى بعض ، كما ثبت ذلك فى الأحاديث الصحيحة . كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال — فى الحديث الطويل ، حديث التجلى والشفاعة : « حتى إذا خلص المؤمنين من النار : فوالذى نفسى بيده ، مامنكم من أحد بأشد مناشدة لله فى استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين فى النار . يقولون : ربنا ، كانوا يصومون معنا ، ويصلون ويحجون . فيقال لهم : أخرجوا من

عرفتم . فتحوم صورهم على النار – وذكر تمام الحديث » .

وسبب نزول الآية – على ماذكروه – مؤيد لما ذكره .

قال أبو الفرج ابن الجوزى . سبب نزولها : أن النضر بن الحرث ونفراً معه قالوا : « إن كان مايقول محمد حقاً . فنحن نتولى الملائكة ، فهم أحق بالشفاعة من محمد ؛ فنزلت هذه الآية » قاله مقاتل .

وعلى هذا : فيقصد أن الملائكة وغيرهم لايملكون الشفاعة ، فليس توليكم إياهم ، واستشفاعكم بهم : بالذى يوجب أن يشفعوا لكم . فإن أحداً ممن يدعى من دون الله لايملك الشفاعة . ولكن : « من شهد بالحق وهم يعلمون » فإن الله يشفع فيه .

فالذى تنال به الشفاعة . هى الشهادة بالحق ، وهى شهادة أن لا إله إلا الله ، لا تنال بتولى غير الله ، لا الملائكة ، ولا الأنبياء ، ولا الصالحين .

[من تشفع بغير الله]

١٠٧ – فمن والى أحدًا من هؤلاء ودعاه ، وحج إلى قبره ، أو موضعه ، ونذر له ، وحلف به ، وقرب له القرابين ليشفع له : لم يغن ذلك عنه من الله شيئاً . وكان من أبعد الناس عن شفاعته وشفاعة غيره . فإن الشفاعة إنما تكون : لأهل توحيد الله ، وإخلاص القلب والدين له . ومن تولى أحداً من دون الله فهو مشرك .

فهذا القول والعبادة الذى يقصد به المشركون الشفاعة : يحرم عليهم الشفاعة . فالذين عبدوا الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين – ليشفعوا لهم – كانت عبادتهم إياهم وإشراكهم بربهم ، الذى به طلبوا شفاعتهم به ، حرموا شفاعتهم ، وعوقبوا بنقيض قصدهم ، لأنهم أشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً .

وكثير من أهل الضلال : يظن أن الشفاعة تنال بهذه الأمور التى فيها شرك أو هى شرك خالص ، كما ظن المشركون الأولون ، وكما يظنه النصارى ، ومن ضل من المنتسبين إلى الإسلام . الذين يدعون غير الله ، ويحجون إلى قبره أو مكانه ، وينذرون له ، ويحلفون به . ويظنون : أنه بهذا يصير شفيعاً لهم . قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا

الَّذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ، وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ [الإسراء : ٥٦ ، ٥٧] .

قال طائفة من السلف : كان أقوام يعبدون المسيح والعزير والملائكة فبيَّن الله أنهم لايملكون كشف الضر عنهم ولا تحويله . كما بيَّن أنهم لا يملكون الشفاعة وهذه لا استثناء فيه ، وإن كان الله يجيب دعاءهم ، ثم قال:﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ فبين : أن هؤلاء المزعومين الذين يدعونهم من دون الله كانوا يرجون رحمة الله ويخافون عذابه ويتقربون إليه بالأعمال الصالحة ، كسائر عباده المؤمنين . وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا المَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟ ﴾ [آل عمران : ٨٠] .

[ضلال الناس فى الشفاعة]

١٠٨ - وللناس فى الشفاعة أنواع من الضلال ، قد بسطت فى غير هذا الموضع .

فكثير منهم : يظن أن الشفاعة هى بسبب اتصال روح الشافع بروح المشفوع له ، كما ذكر أبو حامد الغزالى وغيره . ويقولون : من أكثر صلاة على النبى ﷺ كان أحق بالشفاعة من غيره . وكذلك من كان أحسن ظناً بشخص وأكثر تعظيماً له : كان أحق بشفاعته .

وهذا غلط ، بل هذا هو قول المشركين الذين قالوا : نتولى الملائكة ليشفعوا لنا . يظنون أن من أحب أحداً من الملائكة والأنبياء والصالحين . وتولاه - كان ذلك سبباً لشفاعته له . وليس الأمر كذلك .

بل الشفاعة سببها توحيد الله وإخلاص الدين والعبادة بجميع أنواعها له . فكل من كان أعظم إخلاصاً كان أحق بالشفاعة ، كما أنه أحق بسائر أنواع الرحمة ، فإن الشفاعة من الله مبدؤها ، وعلى الله تمامها . فلا يشفع أحد إلا بإذنه ، وهو الذى يأذن للشافع . وهو الذى يقبل شفاعته فى المشفوع له .

[الشفاعة سبب من أسباب الرحمة]

١٠٩ – إنما الشفاعة سبب من الأسباب التى بها يرحم الله من يرحم من عباده ، وأحق الناس برحمته : هم أهل التوحيد والإخلاص له ، فكل من كان أكمل فى تحقيق إخلاص « لا إله إلا الله » علماً وعقيدة ، وعملا وبراءة ، وموالاة ومعاداة : كان أحق بالرحمة .

والمذنبون – الذين رجحت سيئاتهم على حسناتهم ، فخفت موازينهم ، فاستحقوا النار – من كان منهم من أهل « لا إله إلا الله » فإن النار تصليه بذنوبه ، ويميته الله فى النار إماتة . فتحرقه النار إلا موضع السجود ، ثم يخرجه الله من النار بالشفاعة ويدخله الجنة ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة .

فبين أن مدار الأمر كله . على تحقيق كلمة الإخلاص ، وهى « لا إله إلا الله » لا على الشرك بالتعلق بالموتى وعبادتهم ، كما ظنه الجاهلون .

وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن النبى ﷺ كان يجمع بين « الحمد » الذى هو رأس الشكر وبين « التوحيد والاستغفار » إذا رفع رأسه من الركوع فيقول : « ربنا ولك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء مابينهما وملء ماشئت من شىء بعد أهل الثناء والمجد . أحق ماقال العبد – كلنا لك عبد – لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » ثم يقول : « اللهم طهرنى بالثلج والبرد ، والماء البارد . اللهم طهرنى من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس » كما رواه مسلم فى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال : اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات وملء الأرض وملء ماشئت من شىء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ماقال العبد – وكلنا لك عبد – لامانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولاينفع ذا الجد منك الجد » .

وروى مسلم أيضاً عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ – إذا رفع رأسه من الركوع – قال : سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض وملء ماشئت من شىء بعد . اللهم طهرنى

بالثلج والبرد والماء البارد . اللهم طهرنى من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ » .

وقد روى مسلم فى صحيحه أيضاً عن النبى ﷺ أنه كان يقول : « اللهم لك الحمد » وقال : « وملء الأرض وملء مابينهما » .

ولم يذكر فى بعض الروايات . لأن « السموات والأرض » قد يراد بهما : العلو والسفل مطلقا ، فيدخل فى ذلك الهواء وغيره ، فإنه عال بالنسبة إلى ماتحته ، وسافل بالنسبة إلى مافوقه ، فقد يجعل من السماء كما يجعل السحاب سماء ، والسقف سماء ، وكذا قال فى القرآن : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الحديد : ٤] ، ولم يقل « وما بينهما » كما يقول : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَابَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ آسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَالَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ [السجدة : ٤]

فتارة يذكر قوله « وما بينهما » فيما خلقه فى ستة أيام ، وتارة لايذكره . وهو مراد ، فإن ذكره كان إيضاحاً وبياناً ، وإن لم يذكره دخل فى لفظ « السموات والأرض » لهذا كان النبى ﷺ تارة يقول : « ملء السموات وملء الأرض » ولا يقول « ومابينهما » وتارة يقول « ومابينهما » وفيها كلها « وملء ماشئت من شىء بعد » وفى رواية أبى سعيد « أحق ماقال العبد » إلى آخره . وفى رواية ابن أبى أوفى « الدعاء بالطهارة من الذنوب » .

[الحمد : رأس الشكر والاستغفار]

١١٠- ففى هذا الحمد رأس الشكر والاستغفار . فإن ربنا غفور شكور . فالحمد : بإزاء النعمة ، والاستغفار : بإزاء الذنوب .

وذلك تصديق قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] .

ففى سيد الاستغفار : « أبوء لك بنعمتك علىَّ ، وأبوء بذنبى » وفى حديث أبى سعيد « الحمد رأس الشكر ، والتوحيد » كما جمع بينهما فى أم القرآن ، فأولها : تحميد ، وأوسطها : توحيد ، وآخرها دعاء . وكما فى قوله : ﴿ هُوَ الْحَىُّ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ

فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ، ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [غافر : ٦٥] .

وفى حديث الموطأ : « أفضل ماقلت ، أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير . من قالها كتب الله له ألف حسنة ، وحُطَّ عنه ألف سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل قال مثلها ، أو زاد عليه ، ومن قال فى يوم مائة مرة : سبحان الله وبحمده ، حُطَّتْ خطاياه ، ولو كان مثل زبد البحر » .

[فضائل وأدعية]

١١١ – وفضائل هذه الكلمات فى أحاديث كثيرة . وفيها : التوحيد والتحميد .

فقوله « لا إله إلا الله ، وحده لاشريك له » توحيد . وقوله:« له الملك وله الحمد » تحميد . وفيها معان أخرى شريفة .

وقد جاء يجمع بين التوحيد ، والتحميد ، والاستغفار ، فى مواضع : مثل حديث كفارة المجلس : « سبحانك اللهم وبحمدك . أشهد أن لا إله إلا أنت . أستغفرك وأتوب إليك » فيه : التسبيح ، والتحميد ، والتوحيد ، والاستغفار . من قالها فى مجلس ، إن كان مجلس لغط ، كانت كفارة له ، وإن كان مجلس ذكر : كانت كالطابع له . وفى حديث أيضاً : « إن هذا يقال عقب الوضوء » .

ففى الحديث الصحيح فى مسلم وغيره من حديث عقبة عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مامنكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء » وفى حديث آخر أنه يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » .

وقد روى عن طائفة من السلف ، فى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه ، نحو هذه الكلمات .

روى ابن جرير عن مجاهد أنه قال : « اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك . رب إنى ظلمت نفسى ، فاغفر لى ، إنك خير الغافرين » « اللهم لا إله إلا أنت . سبحانك وبحمدك . رب إنى ظلمت نفسى فارحمنى ، فأنت خير الراحمين » « لا إله إلا أنت . سبحانك وبحمدك . رب إنى ظلمت نفسى فتب علىّ ، إنك أنت التواب الرحيم » .

فهذه الكلمات من جنس خاتمة الوضوء . وخاتمة الوضوء : فيها التسبيح ، والتحميد ، والتوحيد ، والاستغفار .

فالتسبيح ، والتحميد ، والتوحيد لله ، فإنه لا يأتى بالحسنات إلا هو . والاستغفار : من ذنوب النفس ، التى منها تأتى السيئات .

وقد قرن الله فى كتابه بين التوحيد . والاستغفار فى غير موضع . كقوله : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد : ١٩] وفى قوله : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ . وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود : ٢ ، ٣] وفى قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ، وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت : ٦] .

وفى حديث رواه ابن أبى عاصم وغيره : « يقول الشيطان : أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكونى بالاستغفار ، وبلا إله إلا الله . فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يستغفرون ، لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » .

[مقتضى : لا إله إلا الله]

١١٢ – و « لا إله إلا الله » تقتضى الإخلاص والتوكل والإخلاص : الشكر ، فهى أفضل الكلام . وهى أعلى شعب الإيمان . كما ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ ، أنه قال : « الإيمان بضع وستون – أو بضع وسبعون – شعبة . أعلاها : قول لا إله إلا الله . وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » .

فـ « لا إله إلا الله » هى قطب رحى الإيمان ، وإليها يرجع الأمر كله . والكتب المنزلة : مجموعة فى قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وهى معنى :

« لا إله إلا الله » و « لا حول ولا قوة إلا بالله » وهى من معنى : « لا إله إلا الله » و « الحمد لله » فى معناها ، و « سبحان الله ، والله أكبر » من معناها ، لكن فيها تفصيل بعد إجمال .

فصـــل

[معنى قوله : « فمن نفسك »]

١١٣ – وقد ظن المتأخرون : أن معنى قوله « فمن نفسك » أى أفمن نفسك ؟ وأنه استفهام على سبيل الإنكار ، ومعنى كلامه : إن الحسنات والسيئات ، كلها من الله لا من نفسك .

وهذا القول يباين معنى الآية ، فإن الآية بينت أن السيئات من نفس الإنسان . أى بذنوبه ، وهؤلاء يقولون : ليست السيئات من نفسه .

وممن ذكر ذلك : أبو بكر بن فورك . فإنه قال : معناه : أفمن نفسك ؟ يدل عليه قول الشاعر :

ثم قالوا : تحبها ؟ قلت : بهراً   عدد الرمل والحصى والتراب

قلت : وإضمار الاستفهام – إذا دل عليه الكلام – لا يقتضى جواز إضماره فى الخبر المخصوص من غير دلالة ، فإن هذا يناقض المقصود . ويستلزم أن كل من أراد أن ينفى ماأخبر الله به يقدر أن ينفيه ، بأن يقدر فى خبره استفهاماً . ويجعله استفهام إنكار .

وهذا من جهة العربية نظير مازعمه بعضهم فى قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ هَذَا رَبِّى ﴾ [الأنعام : ٧٦] أهذا ربى ؟

قال ابن الإنبارى : هذا القول شاذ ، لأن حرف الاستفهام لا يضمر إذا كان فارقاً بين الإخبار والاستخبار .

وهؤلاء استشهدوا بقوله : ﴿ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ ؟ ﴾ [الأنبياء : ٣٤] .

وهذا لا حجة فيه ، لأنه قد تقدم الاستفهام فى أول الجملة ، فى الجملة الشرطية ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ ﴾ [الأنبياء : ٣٤] فلم يحتج إلى ذكره

ثانية . بل ذكره يفسد الكلام . ومثله قوله : ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] وقوله : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ؟ ﴾ [البقرة ٨٧] وقوله : ﴿ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ؟ ﴾ [البقرة : ١٠٠] وهذا من فصيح الكلام وبليغه واستشهدوا بقوله :

لعمرك لا أدرى ، وإن كنت دارياً بسبع رمين الجمر ، أم بثمان ؟

وقوله :

كذبتك عينك ، أم رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالا ؟

تقديره : أكذبتك عينك ؟

وهذا لا حجة فيه . لأن قوله فيما بعد « أم بثمان » و « أم رأيت » يدل على الألف المحذوفة فى البيت الأول . وأما الثانى : فإن كانت « أم » هى المتصلة فكذلك . وإن كانت المنفصلة فالخبر على بابه .

وهؤلاء مقصودهم : أن النفس لا تأثير لها فى وجود السيئات وليست سبباً فيها . بل قد يقولون : إن المعاصى علامة محضة على العقوبة ، لاقترانها بها . لا أنها سبب لها . وهذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف ، وللعقل .

[الله لا يهلك أحداً ولا يعذبه إلا بذنب]

١١٤ – والقرآن يبين فى غير موضع : أن الله لم يهلك أحداً ولم يعذبه إلا بذنب ، فقال هناك : ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ وقال لهم فى شأن أحد : ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا . قُلْتُمْ : أَنَّى هَذَا ؟ قُلْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٥] وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] وقال تعالى فى سورة الشورى أيضاً : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى : ٤٨] وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهاراً . مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ المجرمُونَ ؟ ﴾ [يونس : ٥٠] وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ . ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٠٨ ، ٢٠٩] وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمونَ ﴾ [القصص : ٥٩] وقال تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] وقال تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ العَذَابِ الأَدْنَى دُونَ العَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة : ٢١] وقال تعالى : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٤] وقال تعالى فى سورة القلم عن أهل الجنة الذين ضرب بهم المثل لما أهلكها بذلك العذاب : ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم : ٣٣] وقال تعالى : ﴿ مَثَلُ مَايُنْفِقُونَ فِى هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهاَ صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٧] وقال تعالى عن أهل سبأ : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ – إلى قوله – ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا . وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الكَفُورَ ؟ ﴾ [سبأ : ١٦ ، ١٧] وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِىَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢] وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] .

وفى الحديث الصحيح الإلٰهى : « ياعبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً : فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك : فلا يلومنَّ إلا نفسه » .

وفى سيد الاستغفار : « أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى » وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الطور : ٤٧] .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه وسلم . ورضى الله عن الصحابة أجمعين ، وعن التابعين وتابعى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

* * *

فهرست الكتاب

* * *



